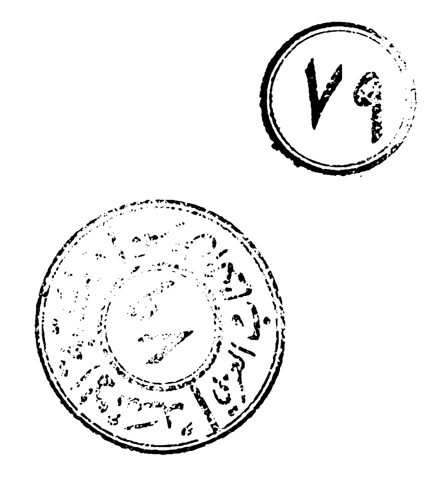
حكاية
الرجل الذي رفسه البغل

وليد معماري



الطبعة الثانية



حكاية الرجل الذي رفس البغل

الطبعة الأولى ١١/ ٨٧/ ٣٠٠٠

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

حكاية الرجل الذي رفسه البغل

مجموعة قصص

وليد معماري

الى عبده معماري

الرجل

الذي

أثقله

الصمت



الشمس في مغارة



دخـل المنسي الى الصف. دفـع البـاب وتـركه مفتوحاً، فدخلت الشمس معـه. جلس المنسي على مقعـده. . المـربع له أربعة أضلاع. . نحن في المربع، والمنسى ضمن مستطيـل المعلّم. المعلّم تابـع الكتـابـة على اللوح. صوت صرير الباب كان مرتفعاً، ولم يلتفت. تابع الكتابة بالأبيض على الأسود، وأمر جادو باشارة من يده ليغلق الباب، فأغلقه، وخرجت الشمس. . نحن ننحشر ثلاثة في مقعد واحـد. وللمنسي وحـده نصف مقعد، والنصف الآخر مكسور. . أنزل عن كتفه حمالـة كيسـه القـماشي، وعلقهـا بمسـمار نابت في الجـزء المكسور. . عندنا محافظ جلديـة. المحـافـظ التي من الشـام جميلة ولمـاعـة. أقفال ومفاتيح. التي من دكان «العويل» متينة لكنها قبيحة. الكيس القماشي غريب لأنه وحيد. مريح. يعلق في الكتف. ويعلق في الـرقبـة أوقـات العـراك. والمنسي لم يكن يعارك. لا يحب هذا النـوع من اللعب. فقـط يتـدخـل لصالح أحد الخصمين. لا يهمه أن يكون الى جانب المغلوب أو الغـالب. والمنسي اسمـه الـذي نناديه به، وأبوه اسمه المنسي،

وجده كان منسياً. وكل المعلومات تقول انه الذكر الوحيد، والأخير، في العائلة، مثلما كان أبوه. وكيس المنسي مريح، ونظيف دائماً.

انتهى المعلم من الكتابة. أرانا وجهه. ضرب كفيه ببعضهما، فثارت منهما غيمة من غبار الطباشير. دس المنسي يده في كيسه، وأخرج منه دفتراً ليس له غلاف. فتحه وأخرج من الدفتر فتاتة خبز، قذفها في فمه، ولاكها، وعاد يبحث في الكيس عن شيء لم يجده.. التفت الى الخلف وقال لي: اعطني قلم رصاص. نظرت الى المعلم، وكان يقرأ من كتاب أمامه. فقلت له: ليس معي.. مد يده الى درج مقعده ودار بها هناك ثم أخرجها حاملاً قلمه الوحيد. قلم رصاص طوله نصف اصبع. حمله بين أصابعه، وفتله أمام عينيّ، وكنت أعرف ما يريد. وكان المعلم يهم بالكلام. فأعطيته المبراة. وقال: اخرجوا دفاتركم. فاختفى القلم، إلا القليل منه، ولم يكن بالامكان بريه إلا باستخدام الاسنان، والمنسي اسمه الذي نناديه به في الحارة حين نلعب بكرة الخروق. وحين لا نناديه، نسميه ابن خدوج. وخدوج أمه، وهو وحيدها. وقال المعلم: انقلوا ما كتبته. فأعاد لي البراية، ولم يكتب مثلنا.. بدأ من منتصف الصفحة البيضاء. هكذا. كان يقول ما دام نصف الصفحة سيبقى أبيض، فليكن الأبيض من الأعلى. خطه جميل للغاية، وكان يكتب لنا اسماءنا على كتبنا ودفاترنا. فيعرف الأهل ان هذا خط المنسي، لأن المنسي الأب كان يكتب لهم عناوين المكاتيب الى امريكا، ثم صارت أمريكا السعودية والكويت وأبو ظبي. وبعدها أخذوه مربوطاً الى الشام. وانتهت الكتابة، وقرأ محمود ما كتبناه. وأمر المعلم: اغلقوا الدفاتر. طالعوا الكتب. فخلع المنسي صندله، ودفعه الى منتصف المستطيل، والتفت الي، فأعطيته أذني:

- سأريك المتحف.
- متى..؟
- اليوم.. عندما ننصرف.. وحدك.

فأعطيته كتابي لأن كيسنه القماشي لم يبق فيه سوى فتاتات الخبز. وكان في

كل مرة يردد دون مناسبة : « عندي متحف . . » . . المتحف كبير في كتاب القراءة، والناس يتجولون فيه، ودار خدوج صغيرة. غرفة وفسحة للشمس وللدجاجات الثلاث. ولم يكن لديهم ديك. دائماً يأتي المنسي متأخراً الى الصف. وهذه المرة قال لي: «سأريك المتحف» وقال: «وحدك». سيقرع الجرس مرة ومرتين وثلاث وأربع، وبعدها ننصرف. والجرس يقرعه الآذن أبو سعدون. وحين يتأخر أبو سعدون عن قرعه يرسل المعلم ولداً منا. أبو سعدون ينام على كرسيه. أم سعدون زوجته. وأم رضوان. أم رضوان جديدة ولا تتركه ينام في الليل. يقول هذا أبو عزيز الجزار وهو يفرم اللحمة، ويغمز بعينيه، فتضحك النسوة في الدكان، ويضحك هو، ولا أعرف لماذا يضحكون! . . . واذا قرع المنسي الجرس فان له رنيناً خاصاً. صوت الجرس جرسان يجاوب احدهما الآخر. والمنسي عنده متحف. .

سبقته الى البيت كما طلب. خدوج جالسة في الشمس. عيناها على الدجاجات، وهي لا تنظر اليها. قالت. «أخفت الدجاجات» فلم أرد، ودخل المنسي. رمى كيسه من باب الغرفة، وأشار لي. فرميت محفظتي فوق مصطبة طينية، وتبعته. . دخلنا تحت كومة من الجيرزون،وخرجنا منها الى غرفة معتمة لها طاقة صغيرة تدخل منها الشمس. ليست غرفة، وليست معتمة. مغارة محفورة في الأرض. . وانحنى عند زاوية المكان تحت بقعة الشمس، وفتح صندوقاً محروقاً . . أخرج كيساً من الصندوق. مد يده وأخرج شيئاً ما بين أصابعه. أغمض عيناً. وضع الشيء بين عينه والشمس، ونظر. انظر. فاقتربت. كانت خرزة زرقاء. قال «هذه الخرزة أكبر من الشمس. تعال. خذها وافعل مثلما فعلت» أخذت الخرزة. أغمضت عيناً ونظرت. اختفت الشمس، وحل مكانها جبل من الغيوم الزرقاء ، وكانت الغيوم تتحرك في كل الاتجاهات. كانت شيئاً عجيباً ومدهشاً. لكنه لم يدعني أكمل فرجتي. أخذ الخرزة وفتلها أمامي «انظر. لها أربعة ثقوب». وماذا اذا كان للخرزة أربعة ثقوب. قال: «كل ثقب لا يودي إلى مكان. أربعة

مجار محفورة، لا يؤدي واحد الى الآخر. . » ومد يده الى الكيس، وأخرج قطعة عظم بيضاء. «هذه رأس أفعى» وسألني: «هل تذكر المنجم المغربي الذي جاء الى القرية. »؟ المنجم المغربي طويل، بني الوجه، على رأسه عمامة بيضاء كبيرة. جلبابه من لون القمردين. له لحية وشاربان كبيران. يداه طويلتان، وبين أصابعه مسبحة تمتد من مرفقه حتى ركبته. المسبحة بخرزات صفراء. مئذنتها بيضاء. رأس أفعى من جب النبي دانيال. في جب النبي دانيال أسود وذئاب وأفاع. وفيه طلاسم البحر. «وسألني المغربي: أتعرف قبر الشيخ المعز لله المغربي سرت أمامه. أخذته الى التربة. لم أسمع بشيخ اسمه المعز لله المغربي، فدللته على قبر جدي المنسي. وقال لا تخبر أحداً بهذا. وقطع رأس أفعى وأعطاني اياه. . قال: «عندما يفكون أسر المنسي أبيك، ارمه في اول قناة من قنوات النهر، وستعمى عيون العسس عن رؤيته وآذانهم عن سماعه. . » وأخرج من الصندوق قرن ماعز أزرق وقال هذا قرن الشيطان. وأخرج كتاباً أحمر الغلاف مغبر الحوافي: «هذا الكتاب كان أمامهم عندما جاؤوا يفتشون البيت ولم يروه. أبي كان يحشو رأسه بالكلام الذي فيه ويقول هؤلاء الحمر يعرفون كل شيء. . كل شيء . وأخرج حجرة. قال: «هذه من مغارة الشيطان» وخبأ الحجرة بين كفيه، وأدار ظهره للشمس وقال: «انظر». كانت الحجرة تضيء في كفيه. ثم قربها من اذنه. «اسمع». وقربها من اذني. . «أتسمع؟. هذا هدير البحر» وسمعت أمواجاً تتلاطم وتتكسر فوق صخور. . قال: «المغارة تؤدي الى البحر. سأريك البحر منها ذات يوم، ان كانت لديك الجرأة على الدخول». . وفجأة أخذ يرمي كل الأشياء التي أرانيها في الصندوق، وكنت أعرف أن اشياء كثيرة ما تزال في متحفه لم يرني اياها. سألت: «لماذا لا تتابع؟» فرد: «أمي ستناديني» وأطبق الصندوق. فنادته أمه.

* * *

وجدته راكعاً على ضفة الساقية يتأمل صفحة الماء. . صرت على بضع خطوات منه، ولم يحس بي. . وقفت وغاص في المجرى دون أن يهتم بثني طرفي

بنطالـه. سار محني الظهر فارداً أصابعه مخالب مستعدة للانقضاض. سألته: «عم تبحث!» رد دون أن ينظـر الي: «هس.. سمكـة...».. وكـان واضحـاً انـه لا يمـزح. صحت به: «سمكـة يا منسي يا مجنـون....». لكنه لم يعر كلامي أدنى اهتـمام.. زاد من انحنـاء جذعـه على المـاء، وتحـول الى كتلة نابضـة متـوتـرة، وأصـابعـه الى سهام مشدودة في قوس. وفجأة انقضت كفاه داخل الماء، وبسرعة أخـرجهـا رافعـاً سمكـة راعشـة، وحـاول بحـركـات جاهـدة الموازنة بين مقاومة السمكـة، واصـراره على الامسـاك بها. مضت لحظـات قلقـة حاسمة، وبدا ان اللقية استكانت. وبدأ هو يسترخي من تشنج صعب. وحين خطا ليخرج من الماء استجمعت السمكة آخر قواها اليائسة، وانزلقت بحركة خاطفة الى الحياة.

خرج المنسي. جلس على حافـة السـاقيـة، وسـاقـا بنطـاله يقطران ماء. جلست قريباً منه. كان واضحاً انه يفكر في الطريدة الهاربةَ. وكنت أفكر أنا بشيء آخر. سألته: «من أين جاءت السمكة الى الساقية؟». أجاب: «الاسماك تعيش في البحار والانهار».

ـ هذه ساقية وليست نهراً.

ـ أهل البلدة يسمونها نهراً. إذني فهي نهر، ولا بد ان فيها اسماكاً.

ولم أكن قد سمعت بأن أسـماكـاً ما تعيش في السـاقية. هناك ضفادع وعلق وثعـابـين ماء، وسـلاحف، أمـا الأسـماك فلا. والتفت المنسي اليّ، وكـما لو كان يؤنبني، قال: «لكنك رأيتها. رأيتها. ألم تكن سمكة؟».

سرنا صامتين طويلاً، الى درجة ان القسم المبتل من بنطاله قد جف تماماً. كنت بحاجة لأن أكسر صمت الخيبة الطويل. سألته: «أين أبوك؟» أجاب: «هناك».

ـ أين هناك؟

فلوح بيده: أخذوه.

ـ من؟ .

ـ هم .

ـ لماذا؟

ـ هكذا .

ثم فسر بعد خطوتين: لأنه كان يرى ويسمع .

ـ كل الناس ترى وتسمع . .

ـ هو كان يرى ويسمع ويتكلم .

وبعد خطوتين أخريين أضاف: «يرضيهم نوعان فقط: من يرى ويسمع ولا يتكلم. أو لا يرى ولا يسمع ويتكلم» ومد يده الى جيبه وأخرج الحجرة القديمة التي أرانيها في متحفه. قال: «ضعها على اذنك واسمع» وكما في المرة الأولى، وضعت الحجرة على اذني وسمعت هدير بحر وصوت أمواج تتلاطم وتتكسر فوق صخور. صوت رياح تعصف من جهات مجهولة، وتمضي الى فضاء مجهول. والتفت الي: «سأريك البحر من المغارة».

ارتجفت خوفاً. كنت أعرف أن أحداً لم يدخل مغارة الشيطان تلك، وأن أساطير القرية تقول أن الداخل اليها هالك لا محالة. لم أجرؤ على اظهار خوفي أمام هدوء المنسي وحياديته.

وصلنا باب المغارة. كانت الشمس خلفنا تنحدر نحو جبال المغيب. . دخل وتبعته. وكان الضوء يزداد خفوتاً، والممر يزداد ضيقاً. وصلنا الى أقصى ضيق في الممر. زحف المنسي وعبر نفقاً صغيراً. عبرت خلفه. صرنا في فسحة تسمح لنا بالحركة. مشى ومشيت. وكانت الرطوبة تزداد حولنا، والعتمة تجبرنا على تحسس جدران المغارة.

توقف المنسي أمام فجوة في الجدار. رفع كفيه وانتزع حجراً من الحائط وأشار لي أن أقترب. اقتربت. وضعت رأسي في مكان الحجر المنتزع. نظرت. . كان ثمة كوة صغيرة مضيئة. وشيئاً فشيئاً تكشف الضوء عن بحر. بحر

حقيقي . . أمـواج تتـلاطم، وزبـد يعلو الأمـواج ويتكسر في البعيد . . وفي البعيد كان ثمة شمس طالعة من الماء . شمس حقيقية . .

. . وكـان علي أن أصـدق كل أعـاجيب المنسي ، وأصم أذني عن نقيق الضفـادع الخـائفـة . لقـد رأيت اعجـوبـة الشمس الطـالعـة من صفاء البحر . . رأيتها . . . رأيتها . .



بكى صاحبي

- **إشارة أولى :**

بكى صاحبي

لما رأى

وأيقن

فقلت

نحاول

أو نموت . .

امرؤ القيس»

- **إشارة ثانية :**

وقلت

تعالي يا دمشق تعالي

نتعرّ في غرفة مضاءة

لنعرف

أينا الرجل

وأينا المدينة

«كتـابـة على حجـر في

باب السلام»

وجدته في الصباح وردة خضراء معلقة على الجدران . . كان مصلوباً على باب المخيم، ثم تكـرر صلبـه الـورقي على جدران كثـيرة . . جدران للشمس، وأخرى للفيء . . طالعتني ابتسامته عند أول اعلان. همس لي: «صباح الخير. ها أنـا عدت الى نابلس. وجـدت الطريق الأقصر اليها . . » . . وما كانت بي حاجة لأن أقـترب منـه وأقرأ اسمه . هو اقترب مني، وحين صعدت حافلة النقل، تعلق خلف الحـافلة . لحقني . نزلت . أسـرعت . صعـدت درج الـوزارة قفزاً . جلست خلف المنضـدة . التفت لأطلب فنجـان القهوة المعتاد . وجدته يجلس قريباً مني . . قال: صباح الخير . . ها أنا عدت الى نابلس قبلك! قلت لك سأعود، وعدت . لم تكن نابلس بعيدة، ولا العبور اليها صعباً . طلقة بندقية ضمن المدى المجدي . تك . . وتصـل . جواز السفـر دم ممهـور بالشوق . حين عبرت، لم يسألني أحد عن اسمي . لم أكن مضطراً لأن أفرد ذُلي . أقف في رتل الاهانة الطويل . ما أصعب أن تستجـدي العبـور مخصيـاً تحت ظل الحـراب العـدوّة . تخرج قلمك وتنحني . تملأ

استمارات بيضاء وصفراء وزرقاء. تفضح تاريخ العائلة، أو تكذب. من مطلع الشمس الى مغيبها، ثم ينادون على اسمك مشوهاً على ضوء كشاف كهربائي مغيظ، ويعلنون: أنت ممنوع!.. يا أولاد الكلبة. لماذا لم تقولوا هذا منذ الصباح؟.. وتناديك أمك. تناديك نابلس. هات عروسك وتعال. أرسلنا لك الطلب، ووافقوا. ثم تقف في الرتل الطويل حاملاً كل أوراق الموافقة. تسلخك الشمس والاهانة، من مطلع الشمس الى مغيبها، ثم يعلنون: أنت ممنوع!

وقلت لأيمن جرّار: يا أيمن ماذا نفعل هنا؟ لقد سقطت نابلس، وصارت أمك تحت الاحتلال. فتعال نبق... ينتفض أيمن. يخرج روحه من صدره ويعتصرها. يقول: «سقطت نابلس، لكني لم أسقط. سأرجع الى هناك وأقاوم».

ـ وندى؟!

سألته، فلوح يده في فضاء الغرفة كمن يلوح بخنجر في الظلام. ضغط على غضبه وأعلن للمرة العشرين: «آه.. هذه الرخويات البرجوازية! هي ترفض، وأهلها يرفضون. يقولون ابق هنا. نعطيك البيت، ونؤمن لك الوظيفة، فلماذا تعود.. أنت هنا حر. أما هناك فستصير تحت الاحتلال». لكن أمي تحت الاحتلال. دراجتي تحت الاحتلال. قبر أبي تحت الاحتلال. ونابلس تحت الاحتلال، فكيف أبقى؟ من كان معي فليتبعني.

وقلت لأيمن: اليك. ها هي الفرصة قد سنحت. هم يسمحون بحجة جمع شمل الأُسر..

يضحك أيمن. يدفع رأسي بيمناه ويضحك: يا غبي! أتراهم يسمحون لشابين مثلنا بالعودة؟ يخافون من خيال الأطفال والعجائز، فكيف نحن؟..

أُعلنُ بشوق: فلنجرب.. أدفعه للتجريب. نمضي الى الصليب الأحمر. نملأ أوراقاً. نكتب. نعطي صوراً. ننتظر الرد. تعود الاستمارات لنقص في المعلومات. نعود للعودة المملة. نلصق صوراً، ونكتب أخرى. ونقول ها هي

نابلس تقـترب. وتكـون بعيـدة. ونقـول نابلس بعيـدة، وهي على مرمى طلقـة بندقية في المدى المجدي.

تخرج ندى من مرآتها، تصرخ: صاحبك هذا مجنون. . أيمن مجنون. يريد أن يعـود الى نابلس. حسن. فليعـد. ماذا يفعـل بشهـادتـه هنـاك؟ تعب خمس سنين. ماذا يفعل هناك؟ وأنت ماذا تفعل بشهادتك. ابقيا هنا. الاذاعة قالت أن النكسـة لن تدوم. وأن المحتـل سينسحب بعـد المفـاوضـات. . يضحك أيمن. يقـول. أمي تحت الاحتـلال. دراجتي تحت الاحتـلال، وقـبر أبي. الانسحـاب بالمفاوضات وهم الواهمين. ابقوا هنا. افتحوا الاذاعة، وارفعوا صوتها جيداً. بعد عشر خطب لاهبـة سينسحب الاسـرائيليـون. أيها المواطنون. إن أمتنا لن تهزم. أمتنا عريقة في التاريخ. تصفيق. تصفيق حاد. عاش الملك. عاش ولي العهد. عاشت الملكة أم الملك. عاش مهـرج الملك. بعـد عشـر نكـات ملكيـة سيقتنـع الاسـرائيليـون بفائدة الكلام وجمال اللغة العربية، وميثاق الأمم المتحدة. تصفيق حاد بعـد مديـح الشـوارب الملكيـة في البيت السـادس والسبعـين في معلقـة شاعر البلاط. امنحوا الشاعر وساماً وبيتاً ومحظية، فمن هنا يبتدىء التحرير.

وقال أيمن: لا تصدق الكذَبَة.

قلت: لنجرب.

قلت لنـدى: انتظـري. . سنـذهب الى هناك، فان مشت الأمور تلحقين بأيمن. وإلا فسيرجع هو اليك هنا.

بكت ندى. قالت: ولماذا يذهب؟ لماذا تذهبان؟! في الضفة كنتما لاجئين، وهنا ستبقيان لاجئين.

صرخ أيمن: لكن نابلس تحت الاحتــلال. أمي تحت الاحتــلال، وقـبر أبي، وزيتونة الدار، فكيف أبقى؟.

وكانت الشمس لاسعة منذ الصباح الباكر فوق الجسر. وكنا نحمل أوراقنا ونقف في رتل طويل لا يتحرك. العسكري المدجج ببندقية الناتو وحده كان يقرع

الأرض داعساً فوق ظلالنا الممتدة تحت موطىء قدميه. وقال أيمن: هذا مهين.

سألته بغباء: ما هو المهين؟

صفعني بعينيه، ونقل عوداً من طرف في فمه الى طرف آخر: المهين أن نستجدي العودة الى نابلس.

ـ معك!.. قلت له. مهين هذا، لكنك لا تريد أن تزيد في عدد اللاجئين واحداً هو أنت.

كسر العود بين أسنانه، ولم يجب.

وكان ضوء الكشاف قد صار شمساً مؤذية في العيون المتعبة حين صاح رجل من داخل المكتب: أيمن جرار..

نهض. اتجه الى كوة في المكتب.. قذف العسكري الأوراق من الكوة، فاستقرت على صدر أيمن.. صرخ بلهجة شتائمية بذيئة: أنت ممنوع! ترك أيمن الأوراق تتناثر على الأرض، واستدار في طريق الخيبة. وكان علي أن ألحقه بعد قليل، فأنا الآخر ممنوع.

وقالت ندى: ماذا يريد بعد؟.. منعوه من العودة الى نابلس، فلماذا لا يهدأ؟ لماذا لا يواظب على العمل ويستقر. أيمن ما عاد يحبني. فيصرخ أيمن بي أنا: هذه الرخويات البرجوازية.

وأقول: لكننا نحاول.

فيضحك. يمد يده ويهزني: لا تتراخَ. الجسر المحروس بدبابات الاسرائيليين لا يوصل الى نابلس. ثمة طريق أقصر.

ولم يودعني. فقط سألني ان كنت أستطيع دفع أجرة البيت وحدي. قلت: أستطيع. راتبي من الوظيفة جيد، ويكفيني ما دمت عازباً. فمضى دون أن ينظر في عينيَّ. ما كان يطيق انتزاع قرار من الآخرين.

جاء الأذن بالقهوة. انحنى واضعاً الفنجان على المنضدة. غطى دائرة كبيرة من فلسطين تحت الزجاج. سألني: لماذا تضحك؟ قلت: غطيت نابلس

بالفنجـان . . فهـز رأسه : أستاذ، نريد أن نعيش. عندنا عيال . . فلسطين نتركها للكبار، هم يحررونها.

ضحكت . . سألت أيمن وهو يضع وعاء بلاستيكياً أمامي : ماذا تفعل؟

أجاب بجدية : سأنتظر حتى يمتلىء الوعاء بالكلام . .

اعتذرت منه : أزعجتك لأني أقرأ بصوت مرتفع.

فهـز رأسـه نفيـاً . . قال: لا . . انـما أردت أن أقول لك كل خطب العالم لا تساوي في وزنها وزن رصاصة واحدة.

أزحت فنجـان القهـوة. لمعت نابلس كنجمـة في سماء صيفيـة. أطـل وجه أيمن منها. قال : لقد عدت قبلك. وجدت الطريق الأقصر. لم تكن نابلس بعيدة ولا العبور اليها صعباً. طلقة بندقية ضمن المدى المجدي وتصل.

وكان وردة خضراء معلقة على الجدران، يلاحقني ويضحك.

قال : صباح الخير . .

فانحنيت على الخارطة وبكيت.

١٤/ ٤/ ١٩٨٥

أمي في البرّاد

مدينتنا بعيدة، وها نحن، أمي وأنا، محاصران في المدينة الكبيرة. قال الطبيب: لا تيأس. وقال الشيخ دعفوس: رحمة الله واسعة، وضرب أمثالاً. قالت الجارة: من له عمر لا تقتله شدة. وقال عمي: بعني الدار، وأتعهد ان تبقى أمك فيها حتى تموت، بعد عمر طويل، لا حل آخر أمامك... إما أن تعالجها بثمن الدار وترجع بها، أو تقضي نحبها بعلتها. وقال المشفى: لا علاج لها عندنا. خذها الى الشام. فأحصيت ما معي، وبعت ما تيسر من أشياء لا نفع منها للحياة أو الموت [1] ومضيت. وقال الطبيب: أمك تحتاج الى اخصائي وأشعة وعلاج متقدم. وقال الناس: عيب يا راضي تترك أمك مريضة ولا تأخذها الى الشام. والشام بعيدة. وحين صرنا فيها صارت مدينتنا بعيدة، وصرنا غرباء.

وسأل الفندق: كم ستمكثان؟ وقال: تحتاجان الى غرفة كبيرة.. أمك مريضة تقول. لا بأس. سنعطيكما غرفة نشطة تطل على حديقة بسريرين. ستين ليرة. أيام الموسم أجرتها مئة ليرة. فيها حمام وماء ساخن وستائر تحجب الشمس

حين ترغبان. حظكما طيب، والفندق في منتصف البلد. احسب كم ستوفر أجور مواصلات. وعندنا مطعم. ترفع الهاتف وتطلب ما تريدان.

وقالت أمي: اذهب الى ابن عمتك عزمي، فهو يعرف. وهو رفيع. وهو من لحم الكتف. فقلت عزمي صار فوق. والذين فوق لا يرون إلا على مستوى ارتفاعهم، لو كان فيه خير لزار مدينته، وصنع قبراً لوالده. فوضعت يدها على صدر أعجف وشهقت: لا تقل! الرجل ابن عمتك، وله مسؤولياته.. عندما طلع في التلفزيون قلت هذا عزمي، لا راح ولا جاء، ثم قال له الولد الذي يذيع نشرة الأخبار في التلفزيون: أستاذ عزمي، لو سمحتم، ولا ادري ماذا بعد ذلك، يعني عزمي كان يستطيع ألّا يرد على الولد. لكنه ابتسم. وقلت هذه ابتسامة عزمي لا راحت ولا جاءت. كبر قليلاً، وزاد وزنه.. أبوه كان طيباً، وهو لا بد. فقلت: أبوه طيان بأجرة يومية، وهذا العزمي يقبض الله أعلم كم. ثم اني لا اعرف عنوانه. فسكتت امي، وفكت عقدة لسانها عند رئيس الخدمتشية في الفندق. قالت نحن أقرباء عزمي الصاعد. وهذا الولد ابني ابن خاله. فوضع الفوهرر [٢] يده على صدره وقال تشرفنا. على الرأس والعين انتما وعزمي بيك. حين كنت أعمل ميتراً في بلودان، كان يأتي ويسهر كل ليلة صيف عندي. رجل كريم والله، المئة عنده مثل الليرة، والألف مثل العشرة... لا تتعذبي في البحث عنه. خذي تاكسي، وقولي له خذني الى المزّة وانزلني عند بيت عزمي النسيان [٣] وهو يعرف. فقالت امي: نحن لا نعرف أحداً يا راضي، وعزمي من لحم الكتف. فذهبت.

تك. وسأل التاكسي: الى أين؟ قلت: الى المزّة. سأل أي مزّة؟.. ولم أكن أعرف غير مزتين. مزة سجن أبي على زمن الفرعون، والمزة التي عمروها بعد اعدام ماري انطوانيت. فقلت له: المزة... حيث يسكن ابن عمتي عزمي الصاعد! فالتفت الي، وابتعد شبراً عني، وعشّق بدّال السرعة، وأسرع متجاوزاً نصف الاشارة الحمراء. البرتقالية. ويا ولد، أي عزمي هذا الذي تعرف البلد

بيتـه دون شروح. وراحت السيـارة تلتهم اشـارات المـرور برتقـالة وراء برتقالة، والمفارق كثيرة، وبيت ابن العمة ليس قريباً، والسائق يعرف الدرب، ويتحرقص على كلام في حلقه ويسعل. ثم كبح اندفاعه عند اشارة حمراء، وانتقم منها بشتيمة تناولت أختها. وسألني: عزمي ابن خالك؟!.. فقلت: عزمي ابن عمتي وأنا ابن خالـه. فهـزّ رأسـه. قال: ولا تعرف بيته؟ قلت: كيـف لا أعرف! بيته عند شجرة التين تحت بيتنا ببيتين، وقبر أبيه في الجبّانة التي تحت العين. ضحك، وقال: بيته في الشـام؟ فضحكت: الشـام ليست بلده، ولا بلدي. الـوالـدة، بعيـداً عنـك مريضـة. جلبتهـا لتتعالج. قلنا ليس لنا معارف غير لحم الكتف عزمي الصاعد. فقـال: باينتـك من أهـل الخـير. وجهـك مضـوّي... لا أطيل عليك الحكي. ابني. الله يحفظ أولادك[4] مطلوب للعسكرية. قلنا امر الله. ثم إن خدمة الوطن واجب، والـــذي يتهـــرب عيب، لكن، معلومـــك، العيلة كبـــيرة، والأولاد في المـدارس. قلنـا ندبـر الولد في مكان قريب، يقدر ينزل منه الى البيت بين كل كم يوم. وأنت سيـد العـارفـين. الـذي ماله جناح لا يطير. يعني. لو واحد دبّر الولد يكـون صنـع معـروفـاً معنـا، والدنيا ما خليت من أولاد الحلال.. رحنا الى عند ضابـط آدمي، شرواك قال مالكم غير عزمي الصـاعـد، بيده الحل والربط. ومن أين نصل الى عزمي الصاعد؟ على باب الله يا حسرة. مالنا غير هذه الجربانة[5] نتسبب منها. يعني اذا كان عزمي ابن خالك.. فصححت له: ابن عمتي. تابع: ابن عمتـك يرأف بحـالنا ويدبرها.. ونحن، وحياتك، لا نبخل... من الألف حتى العشـرة. مستعـدون. وأنت، يعني، بلكي.. وخـاطـرك محفـوظ.. قربنا نصل. وصلنا. تك.

فأخرجت خمس عشرة ليرة. مددتها للعداد... رفع يده وقال: أعوذ بالله يا رجـل النـاس لبعضهـا. ولـو! فألححتُ، فحلف بالطلاق: لا يمكن. هذه علينا أستاذ. خفت أن يطلق الرجل. فتابع: وحياتك هذا اسم الولد واسمي. اذا صار شيء اتصل بي، وأنا من العشرة للألف. محسوبك درويش أبو الذهب..

ويا ستر الله. كان هنا وطار. وظلت المصاري في يدي.
وقالت البارودة: ماذا تريد؟ قلت: أريد عزمي النسيان.
ارتجف شاربه فوق شفة مزمومة: عزمي حاف؟!.. قلت عزمي الصاعد.. هز كتفه غير المبوردة [٦]: اسمك مكتوب؟ قلت: اسمي راضي. ورأيت ان انهي تعاليه عليّ، فقلت: عزمي ابن عمتي. استدار الى المحرس: حتى ولو كنت اخوه [٧]. اسمك غير مكتوب عندنا! وأشار الى ورقة على رف تحت كوة المحرس من الداخل. وعليه هاتف دون قرص. وتحت الهاتف تنبل يدخن. شحط من سيجارته هذا الأخير وقال: هات هويتك. فوجدتها فرصة لاعادة النقود الى جيبي. ولم أخرج الهوية: قلت لك أنا راضي العذاب ابن خالي عزمي. فهز السيجارة، وأسقط رمادها على الأرض: كلهم يأتون من البلد ويقولون هذا. انا ابن عمه، أنا ابن خالته. وانت ابن عمته! فصححت له: هو ابن عمتي وانا ابن خاله. خالهساير العذاب أبي. وصبحة بنت ديب العذاب أمه. يعني ساير وصبحة اخوان فصرخ: يا عمي عرفنا.. ورفع المهتاف: واحد يقول انه ابن.. وحين رن الجرس كانت النصف ساعة قد أتعبت قدميّ. واستيقظ. فأصعدوني.

امرأة خالك مريضة والمستشفى تريد مصاريف. وقالوا لنا مستشفى الدولة عنده علاج أشعة. قلنا ما لنا غيرك لتتدخل.
فقال سلّم على الدكتور ندى واعطه «الكارت»، والأمور تمشي: يا ديبو. أنا نازل

فقال ديبو للهاتف: المعلم نازل. وقال عزمي الصاعد للحرس: خلوا اللاند توصله، وأغلق الآخر الباب الأسود عليه، فاختفى.
ظننت أنه سيأخذني بالحضن، ويأخذك الى بيته، ويرسل معنا من يساعدنا

فأرســل هذا الكـارت . . . فهـزت وجعهـا وقـالت : يا ابني مسؤ وليـاتـه كبـيرة . والفوهرر قال لي انه سيصير وزير(أ) بين ساعة وأختها . فقلت : طز!

وقفنـا أمـام المستشفى . وقال الرجل : وقت المراجعات بعد الساعة العاشرة ، قلنـا نحن معنـا «كرت» . قال ورفع يديه : التعليمات هكذا . ورفع أحد الداخلين يده بالتحيـة فحـوّل الاستعـلامـات رفعـة يديه الى تحية . ودخل الأول . قلنا هذا دخل . قال ، وأنزل يديه : ما دخلكم . وبقينا على الباب . دخلنا وقت الدخول . دلّـونـا على غرفـة الـدكتـور ندى . قال : أهلاً وسهلاً بكم وبه . يجب عمل أوراق دخول . فدخلنا ورجعنا وكان وقت الدوام قد انتهى .

وسأل الفوهرر : كم يوماً ستبقون هنا؟ قلت : لا أعلم . . . على التياسير . قال : خير إن شاء الله . . اعطونا سلفة .

وكتب الـدكتـور ندى شيئـاً على الأوراق ، ونـادى عبد الرحيم . فشرح لنا الأخـير مخطـط المسير الى التشخيص . وقـال لـنا الأبيض : ارجعـوا غداً لأخـذ النتيجـة . والنتيجـة : اخـذني الابيض الى غرفـة داخلية وقال : أمك معها المرض اياه ، ولا أمل . نحوها الى الأشعة . جلسة كل اسبوع . قلت : تقول لا أمل فلماذا العـذاب . قال : الشـافي هو الله ، ونحن علينـا المسعى . فقلت : لماذا لا تدخلونها المستشفى ، تنــام فيــه وتســتر يــح من عذاب الـرواح والمجيء . قال : الأسـرّة للعمليات ، وأمك لا يلزمها عملية .

عدنا الى الفندق . وعدت الى الصاعد . وكان الصعود اليه أسهل من المرة التي سبقت . وقلت له : يا ابن عمتي ، صحيح أني معلم ولست طبيباً ، ولكن الأمـر لا يحتـاج الى كثـير معـرفة . السرطان في الرحم ، وهذا تلزمه عملية ، فلماذا يقـولـون أشعـة . قال ضوّل بالـك . ورفع الهاتف واتصل . ثم قال لي : اذهب غداً الى رئيس المستشفى . اسمـه الـدكتـور نطاح . حكيت معه ، وابق تعال زرنا أنت

والـوالـدة. اتصل بالهاتف وأنا أرسل لكما السيارة. . وهذه المرة لم يرسلني باللاند، بل انزلني معه، وأمر السائق: الى المرجة.

بعـد اسبـوع أدخلوهـا المستشفى. قالـوا يلزمهـا عمليـة للاستئصـال. ثم استأصلوه بعـد ثلاثـة ايـام. وأعطوني امتيازاً أن آتي لزيارتها من التاسعة صباحاً، فكنت أجيء في العـاشـرة. ومن العـاشرة حتى انتهاء موعد الزيارات أستمع الى ألمهـا. وتقـول: يا ابني. بعمليـة ودون عمليـة سأمـوت، فلماذا هذا العـذاب؟! أجيبهـا: يجب ان تشفي وتعيشي عشـرين سنة أخرى وتفرحي بأولاد أولادك. . . وأخرج في موعد خروج الزائرين. يقولون انتهى الوقت فألم ملل الجلوس الطويل على مقعـد معـدني وأخرج. اتسكع في الشوارع ساعة، واكتشف المدينة. أرصفة طويلة مكتظـة بالتعب والظـلال الـلاهبة. باعة كثير ون يلاحق صوتهم خطوتي. يصرّون على منحي بضاعتهم، ربما دون مقابل فيما لو عدت اليهم. وكنت أخاف الـرجـوع الى وراء. أمي تقول: الرجعة غير محمودة. وأنتهي الى الفندق. يقول الفـوهـرر: الحسـاب يا سيـد. المبيت والطعـام. الفطـور والغـداء والعشـاء. ثم أكتشف الأسهـل أن أفطـر وأنـا ذاهب الى امي، ألتهم الشطـيرة لقمـة بعـد كل خطـوتـين. والغـداء وأنـا عائد. والعشاء حجة لنزهة مسائية تحت اعلانات النيون الراقصة، ثم العودة بشيء يحتويه كيس لأرق أو جوع في الليل. . .

وقـالت أمي: مللت من المستشفى. أكـل السرير ظهري. فقلنا للطبيب يا سيـدنـا متى؟ فقـال: بعـد ثلاثة ايام يكون الجرح قد ختم. وقلت هذا لأمي فلم تفرح وسألت: ونذهب الى البلد؟ أجبتها: الى الفندق. فالعلاج سيستمر مرتين في الاسبـوع. هنـا توجـد أشعة نووية، وهي الشافية. فتأوهتْ: النية الطيبة هي الشافية. ويشفيني رؤية بيتي.

عدنا الى الفندق. وقال الفوهرر: الحساب يا ولدي. وسألت أمي: أبقي معكْ؟ قلت: بقي ما يكفي ويزيد. . . وما معي لا يكفي ولا يزيد. وأمي تسأل:

ألم يتصـل عزمي. أقـول: لم يتصـل. فتـترجى: اذهب انت وحاكه. فأهز راسي أسفاً. أقول البيت بعيد، وهو الذي يجب ان يتصل. والوزارة استقالت. وعزمي الصاعد يفرك يديه. وأمي تسأل: ماذا ستفعل؟ فلا أجيب. أرسل مكتوباً لعمي أقـول له: بعتـك الـدار، فارسـل لي شيئـاً من ثمنهـا. وأقـول للفـوهرر: ستأتيني حوالة. فيهز رأسه بخبث ويقول: لماذا تتعب نفسك وتفكر بالموضوع. قال لك المعلم [٨] رخصة الكازينو متوقفة على هزة رأس من ابن خالك. فأصحح له: ابن عمتي. متوقفة على هزة رأس من ابن عمتك. اذا هزّ راسه أخذت أنت نصيبك، وهو أصلاً لن يهزه دون نصيب. ونصيب عن نصيب يفرق. والفرق يا ولدي ليس لعبة دُحـل.. نصف مليـون ليرة. لكن ابن خالـك عمتك طامع بالشراكة.. وقالت رسالة عمي: المدارس فتحت، وسيعتبرونك مسرّحاً اذا لم تعد، ويطبقون عليك قانون العقوبات الاقتصادي. وأمي تزداد شحوباً وألماً واقتراباً من الموت.

وقـال الطبيب: انتهى العـلاج. وليس أمـامك إلا أن ترجع الى مدينتك. هذه الأدوية تخفف عنها الألم. وأنزل قلماً من جيب معطفه الأبيض فخط به رموزاً على ورق. يحتاج فكها الى مال، والمال عند عمي. وعمي يقول انه اشترى بيتاً على العظم وهـو يكسـوه، وسيبيعـه بعد الكسوة، ويشتري ما دمنا رضينا بالبيع، فيهـدهـا ويبني مكـانها عمارة. وحين نرجع يعطينا الرعبون، فربما رضينا بشقة في العـمارة بديـلاً للدار العتيقـة. وأمي تزداد ألمـاً. لا تصـرخ، لأن الفندق لا يحتمل الصـراخ. والفـوهـرر يقـول: الحسـاب. فأقول: أنتظر الحوالة. وأكتب لعمي. وعمي لا يسمـع، وعـزمي النسيان لا يتصل. وأنا لا أهز رأسي. والمعلم يبتسم، ويقول: يا ابني. أنا لا أطالبك. أنا أقول توسط لنا عند ابن خالك. فأقول: هو ابن عمتي وانا ابن خاله. وماذا تريد ايضاً؟.. المطعم على حسابك. وهذه دفعة على الحسـاب ان كنت... فأقـول: لا... فقط أريد ثلاثمائة ليرة ثمناً للدواء،

وأسـددهـا لك حين تأتي الحـوالـة . والحـوالـة لا تأتي . وأمي تنـام على الـدواء ساعتـين، وتستيقـظ لتتألم . فاعطيهـا جرعـة لتنام . وأخرج الى الليل أتأمل سواد عيـنـيـه . ابـحث عن حل، وأعـود لتستيقــظ أمي . وتقــول اذهب الى عزمي الصـاعـد . . . شكلوا الـوزارة وما صار وزيراً . ويقول الفوهرر: قريبك صار أهم من وزير. وكلمته لا تقع على أرض . وكلمة منك تنقذك . وان كنت تخجل المعلم يكلمـه بالهـاتف ويشـرح له وضعـك . والطبيب يقـول: أمك لن تعيش أكثر من شهـرين فعـد بها الى مدينتـك . وكـرر الـوصفـة . والألم يزداد فزد الجرعة . وأقول للفـوهـرر: ما الحـل يا زعيم؟ لا أستطيـع أن أدفع لكم، ولا أستطيع السفر، ولا أستطيع الصعود الى الصاعد . فيقول لي اصعد . ولن اصعد . يقول رأسك يابس مثل رأس ستالين . والمعلم صبر عليك كثيراً . عنده شرطة ويستطيع أن يخفرك لا من أجل أن يأخذ منك، ولكن كي يحرج ابن خالك . فأصحح له ابن عمتي وأنا ابن خاله .

أعطيت أمي حقنـة المـورفـين . ونزلت الى الخريف،والليل البارد . ملابس الـدفء ظلت في المـدينة البعدية . فينسيني البرد كل معاطف الخلاص . وتأخذني الأرصفــة الى السلوان . ويهطـل المطـر فيبتـل شعـري وينبت اليأس . أعـود الى الفنـدق المستيقـظ . فيستيقـظ السجن داخـلي . ويستيقـظ الألم الممتد في السرير. وتسأل أمي : متى نرجــع . أقـول لها غداً . أنت لا تستطيعيـن السفـر بالبـاص . وسيـارة نوّاف الصمـد في التصليـح، يأخـذنا بها حالما ينتهي . وتسأل: بقي معك مصاري . فأهز رأسي : أخذت من نوّاف . وتسأل: لماذا لم يأت الى الفندق فأراه . أقول: يأتي !

الـدواء . أرمي انبـولـة فرغت، وأسحب من العلبة واحدة جديدة . أتناول المحقن . أتأمـل السـائـل الـرجـراج في الأنبولة . يعطى على ثلاث دفعات . وكل حصـة تريـح من الألم أربـع ساعـات قصـيرة . والطبيب قال: ستعيش شهرين .

مضى من الشهـرين ربعهـما. صار العمـرشهرين ينقصـان ربعهما. وماذا لوماتت الآن. ترتاح. يموت الألم. والذين يعرفون يقولون الألم سيزداد. وجسدها سيعتاد المسكّن. ستصرخ ولا تجد مخرجاً للعذاب غير الصراخ. سيجافيها النوم، ووقتها تتمنى المـوت فلا تجده. . . الآن. الحقنة في يدي. والـراحـة الأبـديـة في يدي. واختصـار الـزمن في يدي.فتعـالى أيتها الحنونة أضمك الى عالم السكينة والهدوء. وانزع من جسدك سكاكين العمر. . .

ـ لو أني أموت وأرتاح.

قالت فجأة. أعطتني إشـارة الأمـان. نظـرتُ الى يديّ. ثابتتـان. والى وجهي في المـرآة. شاحب. لكنـه شحـوب الجـوع وتكـرار الأطعمة الرخيصة، لا شحـوب الخـوف. لا تتردد، فليس ثمـة مخرج من هذا الفندق إلا بأضحية، وفي الحساب الأخير لو أن موتي يحل مشكلة لمنحت نفسي هذا الامتياز.

أُدخـل ابـرة المحقن في الأنبـولـة. أسحب الحصـة الأولى. أتوقف. أتابع السحب. ألتفت الى المستلقيـة على مسـامـير الجسـد. . وجههـا الى النـافذة. أهمس لها بود: أمي. . . الـدواء. . لا تلتفت. تكشف عن فخـذهـا. أحقنها المسكن دفعـة واحـدة. طويلة. طويلة. أضـع المحقن على الطـاولـة. أسحب الكرسي قريباً من النافذة وأتأمل ليل المدينة الرمادي بهدوء، وأنصت الى صمت المرآة خلفي.

أنهض. أتنـاول الهـاتف. وبعـد دقـائق تعوي سيـارة الشرطـة تحت النـافـذة. . . أسمـع وقع خطاهم في الممر. . . يقتحمون الغرفة المفتوحة الباب. يحتلون المقـاعـد، ويحولون سريري الى مقعد. ويكتبون. يكتبون بأقلام كثيرة في دفاتر كثيرة. ثم يقرر كبيرهم: كانت مريضة وماتت. .

أهز رأسي: لا . . أنا قتلتها!

ـ كيف؟!

ينظر بشك الى عيني. . كنت أتوقع أمراً بجلدي على الفور، فلم يأمر. توقعت كتيبة عسكر لاعتقالي فلم تأتِ. سلاسل لمعصميّ الجاهزين، ومطارق على رأسي. .

قال بهدوء: تعال معنا. . . سألت: وهذه؟. . . قال: ستنقل الى المشرحة. الطبيب سيقرر.

لم تعو السيارة التي أقلتني. أنزلوني في مخفر له مقاعد حداثقية باهتة مكسرة، وفيه شرطة لا يلتفتون الي. . .

ساعة. ساعتان. خمس ساعات. كان الملل قد تسرب الى عظامي. لو أقف. . . أمشي قليلاً. أحرك قدميّ المتيبستين، وعجيزتي التي سكنها النمل. . . وقفت، فصرخ صاحب الغرفة: اجلس. . . قلت: أريد دورة المياه. فصاح: يا أسعد. . . تعال وخذه.

عدت الى جلستي. تسرب النمل الى شراييني. لم أكن أملك ساعة [٩]. ولا أستطيع تخمين الوقت. . . وحين يمر شرطي ما أمامي أحاول التلصص الى ساعته دون جدوي. . .

خرج صاحب الغرفة. بقي شرطي يجلس قبالتي متشاغلاً بقراءة ما. . حراسة غير معلنة. عاد الرجل الى مكتبه. نظر الى ساعة في معصمه. كان واضحاً انه مناوب، وان عدوى الملل وصلته.

رن جرس الهاتف. نعم. قال الرجل. مفهوم. حاضر. . . وضع المهتاف. ونظر الي بلؤم. نهض. ربما ليصفعني. وحين صار فوقي تماماً ركز عينيه في عينيّ. عاد الى المكتب. قال: هيا اخرج. قلت الى أين؟. . قال: الى جهنم. . . اخذوا وفاة أمك بعين الاعتبار وقرروا عدم توقيفك. الكذب أيضاً يستحق التوقيف. سألت بدهشة: لماذا؟ أجاب: الوفاة طبيعية. كنت تكذب لسبب ما. تريد أن تكلف الدولة دفنها ربما. . هيا. . اخرج. . يا أسعد. تعال

دلّـه على الطـريق. سألت: وأمي؟ . . . أين هي؟ أجـاب: امـك في الـبراد.
تأخذها صباحاً . . وخرجت.

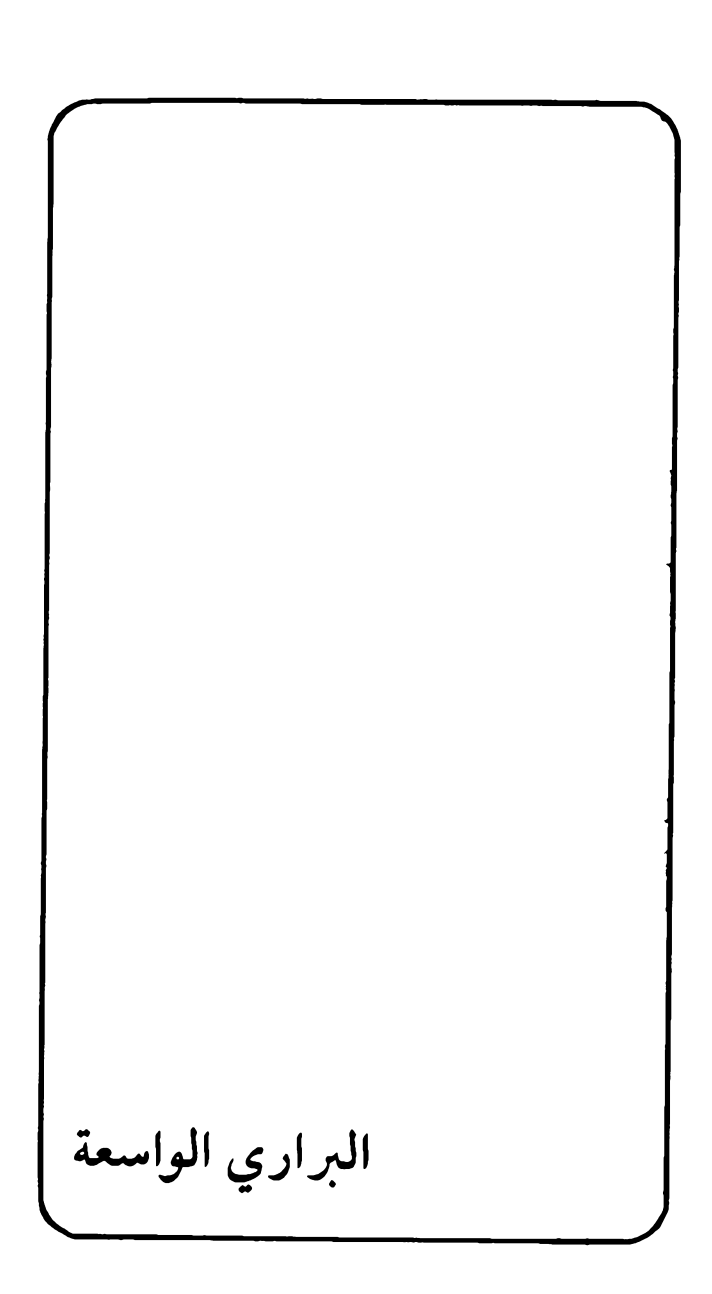
مشيت تاركـاً قدمي تبتلعـان الليـل والأرصفة رصيفاً تلو رصيف. وفي آخر رصيف ابتلعتاه وجدت نفسي أمام الفندق.

وقال الفوهرر: المعلم أنقذك. اتصل بعزمي الصاعد واتفقا.

وكنت أعرف أن أعجوبة الكازينو قد تمّت. وأن أمي ما تزال نرقد في البراد.

● هوامش:

١ ـ مثل التلفزيون والمكواة والسجادة.
٢ ـ اسمه الأصلي هتلر. وقد ولد في الفندق حسب الرواية التاريخية عنه.
٣ ـ عزمي النسيان هو ذاته الساعدة. تارة وتارة.
٤ ـ انا غير متزوج، وبالتالي ليس لي أولاد!
٥ ـ السيارة. سماها الجربانة درءاً للحسد.
٦ ـ مثل المسلحة.
٧ ـ لغوياً: أخاه
٨ ـ صاحب الفندق.
٩ ـ بعت ساعتي تحت وطأة العجز المالي، وكراهية الزمن.


البراري الواسعة



/ ورقة من مفكرة الكاتب/

كانت حفلة القصر صاخبة. وحاصرني شيء لا بد منه، فاتجهت الى حيث يجب أن أذهب. اقتربت من الباب. فاقترب الحارس مني. سألني:

- ماذا تريد؟

- أريد أن أبول . . .

- أين؟

- هنا. في دورة المياه.

- ممنوع!

- لماذا يا أخ؟

- هذه فقط للبيك.

- أي بيك؟

- صاحب الحفلة والفيلّا. هكذا الأوامر!

- ونحن أين نذهب؟

- هناك. . . البراري واسعة.

البراري واسعة. . واسعة. . أيها الفقراء. ما أضيق القصور، وما أوسع البراري. ما أوسع البراري، حين تحاصرون.

صفقـوا له بالحجـارة، وبأيديهم ذات الأصابع الصغيرة السوداء، قرعوا طبولاً خشبية بعصي الأشجار. . رموه بالحصا. . صاحوا خلفه كما كانوا يصيحون في كل مرة:

فضلو. . فضلو. . يا فضّــول

طول الحــورة يا مهبــول

ركض هارباً من الأولاد. . دائماً كان يهرب حين يشتد أذى الصبية له. . يتجه الى البيت الذي يحتل أعلى التلة. . يحتمي بالجدران الطينية، وبعكاز خالته أمّون، أو بشاربي أبيه. . الأولاد يخافون اللحاق به الى هناك. . جلس على حجر يسنـد الجدار. . أرسل عينين خائفتين الى أقصى مدى، وحين رأى رأس آخر الأولاد يختفي في عكفة الزقاق، هرب الخوف منه، وضحك، تلك الضحكة التي لا تشبـه الضحك. . هرش رقبته بأظافر طويلة وسخة. رفع قدميه الحافيتين، وصفق بهما. . ضحك ثانية. تلك الضحكة التي لا تشبه الضحك. نهض. اتجه

الى جدار مهدم لزريبة مهجورة. تناول صفيحته الفارغة. دس رأسه في انشوطة الحبل المربوط بالصفيحة. نفخ صدره، وقوس ظهره نحو الخلف، ثم بدأ الضرب على الصفيحة.. بم. بم. بم..

العصفور كبيرة.. بم. بم. بم.. الشجرة تطير. الشمس تطير.. الشمس تبكي. الغيمة تحكي.. بم. بم. بم.. العنزة تعوي... الحجرة تمشي.. بم. بم. بم..

اسمي فضول الداعس.. أبي أبو راسم الداعس.. أخي راسم الداعس.. بم. بم. بم. جاء العسكر.. بم. بم. بم.. حملوا الدفتر.. بم. بم. بم.. أكلو سكر.. بم. بم. بم.. قال خالي.. بم. بم. بم.. عاش الوالي.. بم. بم. بم.. العشرة بمِيِّة. تحتك مَيِّة.. بم. بم. بم.. فوقك بقرة. تطعمي عشرة.. بم. بم. بم.. بياكلها واحد. هوه وقاعد.. بم. بم. بم..

وطاف حول البيت ثانية. اقترب من مجمع الرجال الجالسين في فيء الحائط. كانوا يتكلمون وقد هدلوا شواربهم كأنما يرسمون مخططاً لسير الرياح. يدرجون مسابحهم بين أصابعهم الخشنة، وبعدون بها رمال الزمن. يسكتون فجأة. يستغرقهم صمت رجولي، وفجأة ينطلقون كقطيع أحصنة متوحشة.

صاح أبو راسم الداعس: بسْ يا قرد يا فضلو.. رح. انقلع من هنا..

وتابع كلامه في عصرية الرجال.. لكن القرد فضلو لم ينقلع. ولم يوقف قرع طبلته الفارغة.

نهض الرجل حانقاً.. اتجه الى ابنه. انتزع انشوطة الصفيحة من رقبته، ثم طوح بالصفيحة بعيداً.. أمسك باذن فضلو وشدها. صاح به: عيب عليك. صار عمرك عشرين سنة وعقلك لم يكبر...

وكاد يصفعه.. تدخل شارب أحد الجالسين في فيء الحائط صائحاً: «لا

تضربه!» ونهض من مكانه. . اتجه الى فضلو. ربت على كتفه ولاطفه: رح يا ابني. العب بعيداً.

وكان فضلو لايرغب في الذهاب بعيداً. . اذا نزل الى الأزقة فسيلحقه الأولاد. يضربونه أحياناً. يرفعون ثوبه، ويكشفون عما لا يجب كشفه، ويصيحون:

فضلو فضلو يا فضال   فضلو ماشي بلا سروال

وخالته أمّون تخيط له السراويل، وتقول له: «يا فضلو، لا تشلحه»! فيهز رأسه، ويضحك. ثم ينساه تحت أول تينة يقرفص تحتها.

وخالته أمّون، أرضعته، وربته بدل أمه. . أمه ماتت ساعة الفجر الذي ولد فيه. . وربّت أخاه راسم.. وراسم ذهب الى المدرسة وتعلم. . استبدل صندله بشهادة، ثم استبدل الشهاد ببدلة. ثم استبدل البدلة بسيارة سوداء طويلة ولامعة. . وصار كبيراً. . يأتي الى القرية فتأتي القرية الى بيت أبيه. . تُسلِّم وتترجّى. . وفي الخريف الذي مضى، صعدت السيارة السوداء الطويلة اللامعة الى أعلى التلة، وفيها راسم ومرافقه وسائقه. . وحين غادرت كان في جيب راسم الداعس بضعة أسماء. . جميل الطولي. نقله من الجبهة الى كولبة حراسة. . عزمي الصرعة. صار موظفاً، وعما قريب يبدأ بالسرقة. . شعبان روح القلب. طلع براءة من تهمة الحشيش الذي وجدوه عنده في السقيفة، وطلع الحشيش عقيدة قديمة نسيتها جدته هناك. . نهرو الضايع دفع البدل بالدولار وشالوا اسمه من الحدود. . ولم يبق سوى حميد السهمان. . حميد السهمان حظه قليل. . رفع راسم يده، وضعها على صدره احتراماً لأم حميد، الختيارة. . قال لها: خاطرك على عيني وراسي يا أم حميد، لكن ابنك اشتغل بالسياسة، وحكى شغلات لازم ما تنحكي. . حكى. . ! بنقدر نقول ما حكى؟! ما بنقدر. .

ومد يده الى جيبه، وأخرج ورقة مالية من هناك، كأنما كان قد وضعها

خصيصاً لهذا الغرض، ثم دسّها في يد أم حميد المطبقة، فبصقت المرأة من عينيها وقالت المصاري ليست ابني!.

وناس ضوء اللوكس، فصرخ أُبو راسم بالولد راضي: «يا راضي.. دبر اللوكس».. وحين شع الضوء الأبيض من جديد، هز راسم الداعس رأسه وقال: يلّلا.. كم يوم وتصلكم الكهرباء. والماء أول الصيف. وتوقع أن تهتز شوارب الرجال فرحاً، وتصدح ألسنتهم تهليلاً. لكنهم سكبوا فوق ظنه هزات بليدة من رؤوسهم.. كان النعاس سيداً أمرهم بالانسحاب واحداً بعد الآخر، لأن الفجر لا يتأخر، والأرض تحب المعاول المبكرة.

وبقي ضوء اللوكس وحده يفحّ، ويضيء وجه راسم المنتفخ، والغبارَ العالق بلحية أبي راسم الخشنة، وضحكة فضلو البلهاء المتمددة عند العتبة، والخالة أمّون النائمة تحت وشاحها.. لم تكن تحلم.. أمّون لا تحلم. أمّون لا تعرف الأحلام.. أمّون لم يكن لديها وقت للحلم.. ربت راسم وفضلوا في بيتها. أطعمتم وألبستهم، وسهرت أقماراً عليهم. غطّت بردهم بدفء الأم، ويُتمهم بحنان المرأة.. ربما كان عليها أن تفخر لأن راسم ذهب الى المدرسة راكباً جحشتها السوداء، وعاد راكباً سيارة من اللون ذاته.. أمّون لم تفخر.. لم تقل هذا المنفوخ أنا ربيته، ولا هذا الأجدب أنا صبرت عليه عشرين سنة.. كانت الأمور بسيطة في صدرها.. كبرا.. فقط تقول كبرا، كما لو كانت تحكي عن شجرتين نبتتاَ في دارها.. ولم تقل أولادي.. دائماً هما ولدا المرحومة.. أولاد أختي.. ابن أختي راسم الداعس. وتبحث عن وجه أختها في الوجهين.. أين يختبىء.. في شرار عينيّ هذا العاقل، أم في ضبابية عينيّ فضلو الأجدب. ولا تجده، فتهز رأسها من يأس، وتستحضر وجه الغائبة رئيفة. ثم تستحضرها جسداً وصورة. تخطو رئيفة، وعلى رأسها صفيحة ماء ملأتها من العين. ناحلة. كأنها هي محراك تنور يمشي.. وعيناها.. تعودت رئيفة، من العزق في الأرض، أن

تدفن عينيها في التراب. وحين ماتت، ما كانت بحاجة لمن يغمض لها تينك العينين النائمتين.

. . وسعل راسم. . هدر كمحرك (تراكس) اصطدم بصخرة، ثم هز سكون القاعة برعد أطلقه عبر حنجرته المتورمة: خالتي أمّون. . .

وما كان بحاجة لتكرار النداء. لم يعتد التكرار. . يعطي الأمر مرة واحدة، وينتظر التنفيذ. وقد انتظر جواب خالته أمّون.

استيقظت الخالة، وبدت كأن لم تكن نائمة. . أمّون هكذا. تنام مفتوحة العينين، وتصير في اليقظة مغضمة اياهما. وقالت: نعم يا عين خالتك؟

ـ البيت! . . . قال راسم الداعس.

ـ ما به البيت يا عيني؟!

ـ أشتريه منك. . أريد أن أبني مكانه فيلاّ.

ورسمت أمّون فوق شفتيها ابتسامة صفراء شاحبة، وقالت بصوتها المخذول: وماذا أفعل بالنقود؟. . ثمن القبر ومعي. والكفن واشتريته.

فاتكأ راسم على المخدة لاوياً اياها طيتين وقال: اذن أريده منك.

ـ وأين أسكن أنا؟

ـ أشتري لك أحسن دار في القرية.

ـ لماذا لا تشتري أحسن دار في القرية وتعمر فوقها فلتاتك. .

ـ دارك تطل على الطريق. . يراها القادم من رأس الضبّة.

ـ لا يا عيني. . الدار من رائحة أمي وأبي. . الدار دار جدك. . لا أبيع حجرة منها. .

ـ خرابة! . . نفخة ريح تطيرها، وأنت متمسكة بها. أنا خائف عليك يا خالتي.

ـ لا تخف. . اللي إلو عمر ما بتقتلة الشدّة.

فمد راسم توسلاً قليل الأهمية نحو والده:

ـ احكِ يا بو راسم.

فجمع أبو راسم حبات مسبحته بين كفيه، ودعكها ، وخاطب أمّون: الأولاد لهم حصة من جدهم المرحوم.

فلم تجب أمّون... فقط ردت طرف الوشاح الى الخلف، وقاربت دروب التجاعيد المؤدية الى فمها، ثم نهضت. وقبل أن تبتلعها العتمة المتدفقة من باب القاعة، رشقت راسم بنظرة غاضبة مشفقة هازئة محتقرة.. وتبعها فضلو واثباً...

* * *

ـ وهذا؟!

قال راسم بعد وقت كاف لنسيان نظرة الخالة. فسأل الأب. ما به هذا؟؟

ـ يصيع في القرية، والأولاد يلحقونه.

ـ لا يؤذي أحداً.

ـ أنا ما قلت يؤذي.. يبهدلنا في القرية. والناس لا تعرف إلا أنه ابن الداعس.

ـ فضلو مبروك..

ـ خرافات.. العلم يقول إنه متخلف عقلياً، وحالته للأسوأ.

ـ يعني.. ماذا تريد أن نفعل به؟ نشتري له عقلاً؟

ـ احبسه في البيت..

فشد أبو راسم مسبحته بين يديه حتى تقطع خيطها، ثم راح يلم الخرزات المتناثرة، ويدسها في جيبه..

وهبطت السيارة السوداء الطويلة اللامعة مثيرة خلفها سحباً كثيفة من الغبار. لحقها الأولاد. لحقها فضلو. ما كان بحاجة لمن يرفع له ثوبه، ويكشف له عما لا يجب كشفه.. رفعه هو بين يديه، وركض في سحب الغبار. وحين

ابتلع الطريق الثعباني الأسود السيارة السوداء، وغيبها في امتداده المجهول، هطل المطر، وأعاد الغبار الى الأرض التي صعد منها. ساعتها، وقف فضلو دهشاً ووجهه الى الغيوم الباكية. كأنما يرى المطر لأول مرة. . رفع يديه الى الأعلى، وانتزع جسده من الثوب، وألقاه بعيداً. أطلق ضحكته التي لا تشبه الضحك. وصراخه الذي لا يشبه الصراخ، ثم مضى عارياً يركض خلف الريح. . الريح التي صنعت أعجوبة الغسل المفاجئة.

* * *

جاء الشتاء. . هطل المطر في الصباح وفي المساء وفي أوقات غير محددة. . توحلت دروب القرية، واختلط الطين بروث الحيوانات. . صار الطين مغطس دفء تحت قدمي فضلو، وكلما قارب على الجفاف، كان فضلو يخرج صفيحته، ويضربها صائحاً:

المي المي جابتها أكلوا البيضة وقشرتها

وحين يتعب، يقف متطلعاً الى الغيوم، فتهطل فوق وجهه أعجوبة جديدة، ويعود الطين من جديد. ذلك الطين المعطر بروث البقر والحمير والبغال والبشر. . الطين الذي لا يليق بسيارة سوداء طويلة لامعة. .

بدلاً عنها، جاءت سيارة أخرى. . صاح الأولاد: هذه سيارة البلدية. . صعدت الى الأعلى. عحنت الطين، وشقت ثلمين عميقين فيه. . انعطفت يساراً، ثم يساراً، وتوقفت عند بيت أمّون. ترجل منها ثلاثة رجال. كهلين وشاب. وبقي السائق المعمم بطاقية صوفية داخلها. . نادوا أمّون. خرجت. مدّوا لها أوراقاً، فأبقت يديها معقودتين فوق بطنها. دسوا الأوراق عنوة في بطنها. . وقال كهل متلفع بكوفية: وقّعي لنا هنا.

وفرد أمامها ورقة بيضاء طويلة.

ـ ما هذا؟. . سألت أمّون.

أجاب المتلفع: هذه ورقة تبليغ بالاستملاك.

- استملاك ماذا؟ سألت أمّون بعفوية خائفة.

- استملاك الدار. . الدار صارت ملكاً للحكومة.

- هذه داري.

- دارك استملكوها. .

- لماذا؟

- لانعرف.

وتلعثم الشاب وهو يقترب خطوة من أمّون، وصاح في أذنها، متوهماً انها ضعيفة السمع: يا خالة. . قالوا لنا في البلدية ان الدار ستهدم ليبنوا فوقها حاروظ الماء. . صار عندكم كهرباء. . والآن جاء دور الماء. . حنفيات يا خالة. لن تذهبي الى العين مرة أخرى.

كشّرت عن ابتسامة مريرة، وردت: طبعاً لن أذهب الى العين لأني سأكون ميتة. .

ثم استدارت تاركة الأوراق تهبط كغربان الشؤم على عتبة الدار.

خرج فضلو. جمع الأوراق المتناثرة. . ألقاها نحو الأعلى. . تطايرت الأوراق، فقفز اليها. . أطلق ضحكته التي لا تشبه الضحك، وصاح دون قرع على الصفيحة الفارغة:

ورقة ورقة ورّيقا السرقة عملت حريقا

وكف المطر عن الهطول!

* * *

جاءت سيارة أخرى. . ثم سيارة أخرى. . وقالوا لأمّون، دون أوراق هذه المرة: يجب أن تتركي الدار لأنها ستهدم. . ولم تسمع أمّون. . ثم جاءت سيارة شاحنة تحمل رفوشاً ومعاول. . حملوا فراش أمّون، وهي فوقه، ووضعوها في الخارج، وبدأوا العمل.

جاء أبـو راسم. . نظـر الى أمّـون المستلقية وقال: يا أمون. راسم قال لك بيعي الدار لأنه كان يعرف ان الحكومة ستستملكها. . أنت ما رضيتي. .

ولم تتحـرك أمّـون. . لم تفتـح فمهـا. . . فقط أرسلت نظرة من عينيها فيها الغضب والشفقة والهزء والتحدي والاحتقار. وكان فضلو يبكي دون دموع فوق رأسها.

* * *

أخــرج فضلو صفيحتـه من خلف جدار الـزريبـة ومعهـا العصـا. . علق الصفيحـة في رقبتـه. . نظـر الى سماء واسعـة خالية من الغيوم والعصافير. كانت الشمس تسطـع لاهبـة فوق الأرض. . رفـع عصـاه. أراد أن يقـرع طبله المدوي ليصـل الى شجـرة اللوز البعيـدة. . نظـر الى أبيه. . كان شاربا الأب يتحركان بايقاع كلماته المنطوقة. وكان الرجال يستمعون. . أرسل أبو راسم نظرة تهديد الى فضلو، وعاد الى الحديث: يا عمي، وهاي صار عندنا كهربا.

فأكمل رجل أدرد: بقيت المَيْ يا أبو راسم.

تابع أبو راسم: الطريق رح يتزفت من تحت لهون.

ردت لحية مسترسلة وهي تنحني فوق مسبحة في اليد: منشان سيارة راسم بيك. . والله يا عمي هيك سيارة حوينتها تمشي على التراب.

ومن بعيـد انعطفت سيـارة سوداء طويلة لامعـة تاركـة الطـريق الثعبـاني، ومشت فوق الدرب الترابي، مثيرة زوبعة من الغبار خلفها. . عندها أنزل فضلو عصاه فوق الصفيحة وقرع:

حريـقــة. . حريقــة. . حريقـــا الـــسيـــارة بتــعــرف طريـــقـــا

وصعـدت السيـارة، وخلفها صعدت كومة أولاد. . التفوا حولها، وتفرجوا على الشمس التي تركت قبـة السـماء، وطلعت من احـدى نوافـذها. . . وتفرجوا على الرجال الأربعة الذين هبطوا منها. . . راسم، والمرافق، والسائق، وشخص رابع كان يحمل في يده ملفات كثيرة. . .

نهضت شلة أبي راسم . . اتجهت الى الضيــوف . . رفعت أيـديهـا وحيت باحترام . . وحده أبو راسم صافحهم ، وحين وصلت يده الى الرجل الرابع ، نفخ راسم أوداجـه ، وحقن دمـاً أحمـر في وجهـه وقـال : بابا . . هذا هو المهندس الذي سيبني الفيلاّ .

سأل ابو راسم بدهشة : أين سيبنيها؟

رد راسم وهو يضحك : مكان دار خالتي أمّون . . .

عاد أبو راسم الى دهشته : دار خالتك استملكتها الحكومة . .

رد راسم بلهجـة انتصـار : ما الحكـومـة أنا يابا . . . وأنا الحكومة ! . . يعني كنت تريدني أتركهالهم وفيها رائحة جدي؟ . . لأ يابا . . اشتريتها منهم .

والتفت أبـو راسم الى رجاله ، وقد سرت فيهم عدوى الانتصار ، وابتسم . . قال : أنا من الأول قلت الحكومة غلطانة . . مكان دار خالتك لا يصلح للحاووظ .

ثم تطلع الى راسم وتابع : عفارم يابا . . خالتك رح تنبسط تمام .

وكـانت أمّـون تركب عكـازهـا ، ماضية الى الأرض التي كانت داراً لها . . التفتت الى السيارة السوداء الطويلة اللامعة . . استجمعت قوى ضائعة في الفم ، ثم بصقت فوق النافذة المضيئة .

أمـا فضلو فقـد استمـر يقـرع على صفيحتـه ، وكـان الصـوت يصـل الى البعيد . . ربما حتى شجرة اللوز الوحيدة . .

بم . بم . بم . . جاء العسكر . . بم . بم . بم . . حملوا الدفتر . بم . بم . بم . . أكلوا سكر . . بم . بم . بم . . العشرة بمِيّة . . تحتك مَيّة . . فوقك بقرة . . تطعمي عشرة . . . أخدها واحد . . . ما توا العشرة . .

ورقـة . . ورقـة . . ورَيـقـا	الـسـرقـة عرفـت طريـقـا
المـي المـي جابـتـهـا	أكـلوا الـبـيـضـة وقـشـرتهـا

واقـترب منـه راسم. أمسـك الصفيحة بيده وشدها. . قطع الحبل. رماها أرضـاً. داسهـا بقـدم حانقـة. قذفهـا بعيداً. صعد الى السيارة. شغل محركها. تحـرك بها. مرت العجـلات فوق الصفيحـة. عاد الى الـوراء. أعـاد الكـرّة. استحـالت الصفيحـة الى قطعة تنك مستوية. نزل من السيارة. اتجه الى فضلو. امسكـه بيـد من كتفـه. صفعه بالأخرى. صفعة. صفعتان. ثلاث. دفعه بقوة. ارتمـى فضلوعلى الأرض. نهض من جديـد. ومن جديـد أطلق ضحكتــه. . ضحكتـه تلك التي لا تشبـه الضحـك، ثم ركض باتجاه البراري الواسعة، حيث الشمس التي لا تعرف البكاء.

١٩٨٤/١٠/١٤

الحركة الرابعة في السكون



الغرفة . . .

شتـاء وليل وشتاء جاف . . الأشياء أكلت الفراغ . صارت الأشياء خانقة . عشر لفافات يدخنها عشرة سكارى في بئر . الأشياء ممددة على الفراغ . سائخة فيه . ما بقي يتسـع للجمجمـة وابهـام القـدم . . أشيـاء . . أشياء راكمها الزمن . صور ملوك يصـدرون الأوامـر . صور راقصـات يضفـين على الأوامر شيئاً من المتعة . . والأشيـاء ميتـة . . الأشيـاء دائـماً ميتـة . . والغـرفة تابوت تفيض منه الأشياء على الفـراغ الممكن ـ منـد متى وأنت تكـدس تفـاهـاتـك في هذه المغارة ـ عشرة آلاف كتـاب متنـاقض شطـحات الصـوفيين وأخبـار الغـواني . . الفيـدون ومـذبحـة هير وشيـما . أشعـار الضلّيـل وأسـرار الحيـاة الجنسيـة . مدينـة الشمس وطقـوس الظـلام ـ تحتـاج الى عمـرك ، من الصـرخـة الأولى ، هل صرخت ، الى البكـاء الأخـير عليـك ، ان كان ثمـة من سيبكيك ـ لتقرأ ورقة من كل كتاب . . مقاعد . مقـاعـد كثـيرة غادرهـا الجـلاس . واسعة وضيقة . خشبية ومعدنية وبلاستيكية . بسنادات ، ودونها . بأقفية ودون أقفية ـ لم تكن المقاعد وحدها التي فقدت أقفيتها ـ

لم يجلس عليها أحد منذ دهر. لوحات باهتة لرسامين مشردين. أباريق نسيت الماء. صحون تشقق ميناء خزفها. ملاعق. مناضد. مدفأة بلا أبواب ولا مداخن. معاطف بلا جيوب. مشاجب بلا مسامير. رغبات مدفونة تحت الغبار. أحذية احدودبت نعالها. سرير مفكك ـ وأنت تنام على طراحة ـ علب منظفات فارغة. صناديق مغلقة على الحزن والخوف ـ تخاف ان تفتحها فيهرب العمر ـ محافظ سفر غادرتها القطارات في المحطة الأخيرة. ملاحف عتيقة للعث. مذياع خانه الصوت والأغنيات. علب دهان دون شمس. جدران كالحة تسقط قشورها كحيتان نسيها الموج على الرمل. ليل وشتاء وليل موجع، والريح خبأت ضجيجها تحت حجر في برية ونامت ـ وأنت وسط الأشياء تفتقد الفراغ لتمضغه، والكثافة تفترس رؤيتك ـ وليل خامل حتى العتمة. حبال مشنوقة في السقف ـ لاتهرش جلدك، فما عادت الغرفة تتسع لمزيد من القشور ـ مكانس مشلولة. ساعات جدارية أوقفت عقاربها على الصدأ. أوقفت رقّاصاتها عند الزوايا الحيادية. وزمن فج يعلك أظافره بلا تعب ـ وأنت في الغرفة، الغرفة فيك ـ الغرفة عجوز كَرْمش جلدها الرماد ـ وأنت ـ ليل وليل وشتاء، والريح نامت. والشتاء يرتدي الصقيع. والصقيع في الغرفة والغرفة في الليل.

الصورة . . .

ضحك النهار، واقتنص اللحظة. والجدائل التي طارت ظلت طائرة. والعينان ضاحكتان. والزهور ـ في الصورة ـ لا تعرف اليباس. وقال هذه يدي في طرف الصورة. مددتها لأدخل في اللحظة. سبقتني الحدقة، وظلت ضحكتي في الوقت. وضحكتكِ تحت الشجرة. وجدائلكِ تطير ولا تبتعد. فتعالي في الصباح لأقول لك صباح الخير. وتعالي في المساء لأقول لك صباح الخير. ونغلق الباب. كنا في الصباح معاً، وأغلقنا الباب، وكنا معاً تحت اللحاف. وأسدلنا الستارة. وتركنا

فتـاة النـافـذة المقابلة تصنع خيالات دون الواقع . وقلتُ هذه الصورة لي . أعلّقها على جدار الغـرفـة ، وحـين لا تأتـين في الصبـاح ، وأنت لا تأتـين غالباً ، أقول لها صباح الخير ، وحين لا تأتين في المساء ، أقول أنت هنا . وحين لا تشرق الشمس ، تشرقين ، وحين لا تمطر الغيوم تمتلىء الأودية بالضباب . وأقـول هذه الصورة لي . ضاعت المسـودة ، وبقي الجـدار مغـروزاً . والجـدار لا يطير . جدائلك تطير ، ولا تبتعـد . والغـرفـة حين لا تكـونـين يكـون عطـرك فيها . وحين لا أكون ينبت فيها الحبق ، ويغافلني الياسمين . يفتح زجاجة النبيذ ويسكر . يهرب بلبل الجيران من قفصه ويأتي ليغني . ترقص المـرأة الوحيدة . ويقول الجيران : هذا الخائن لا يغني إلا حين تتعـرى . والصـورة على الجـدار . والجدار ليس غريمي ، وهو لا يحسدني حين تكـونـين تحت اللحـاف معي . والنـافـذة تخبىء وجههـا تحت الستارة . وفتاة النـافـذة تسـرح في خيالاتها وتظل مقصرة عن الواقع مسافات . يا لك! تمطر أرض الغـرفـة ، وتسـري الينابيع في السقف . حين نكون معاً . في الحب . على مساحة البرية : تعالي في المساء نصنع غزالة جديدة : كنت عندك في الصباح : في الصباح أغلقنـا البـاب وخفنا . . . في المسـاء سنغلق البـاب ونخـاف . . المـرآة مغلقـة .

والسنـونـو يطـير . والعش مفتوح ، وضحكتك هنا . نصنع غابة من الحلم ونتعانق تحتهـا . نصنـع جرزة عنـاق . فيمطـر السقف . ولا يغـار ولا يشي . وتنبت الأرض شمسـاً حيث تمر قدمـاك . وحـين لا تكـونـين تظـل رائحتـك تطوف في الأنحاء . وصـورتـك على الجـدار تضحـك . وجـدائلك تطير . والزهور لا تعرف اليباس . وانت احلى خارج الاطـار . وحـين تتعـرين . وحين تنهضين . وحين تصرخين . . عضـني ليطلع القمـر من عنقي . فلا تخافي أن يأتي يوم ولا أحبـك . لأني حين لا أكون لن تكوني . وحين لا تكونين لا أكون . دافئة في الشتاء . رطبة في الصيف . وقـديسـة في كل الأوقـات . يا قديسـة المسـاء : السلام لك . يا ممتلئة رغبة . الحب معـك . مبـاركـة أنت بين النسـاء . مباركة تفاحة بطنك وقامتك وصمتك . مباركة

الجدران التي لمستها يدك. لها رائحة الياسمين وصورتك حين لا تأتين تهطل منها الحقيقة. وتفرش ضحكتك جنون الوقت. فتعالي في الصباح. وتعالى في المساء. تعالي في الوقت وابتدئي.

جاؤوا

سنكي طخ. . سقط الباب مع انه مفتوح. وقالوا هذه غرفته مع أنه ليس هنا. لا يمكن ان يكون هنا وعندنا في آن. إذن هو عندنا، وهذه غرفته. الكلب ابن الكلبة. أغلق مخه على البله. وكل هذه الكتب في رأسه. أليس هذا التيس أرسطو هو الذي تحدث عن فضل القيمة. والستارة صفراء. يجب كسر أنوف الاشياء من أجل الهيبة. ابعجوها. ولا تغرنكم بساطتها. اولاد القرود يتقنون تمويه الذهب. منضدة من الابنوس. . مطلية بالتنك. وهذه بندقية قناص، لا عصاة المكنسة، قلبوا صفحات الدفاتر. صفحة صفحة. الأوراق البيضاء قربوها من النار لتظهر بواطنها السرية. ستائر للنافذة، مع اننا اصدرنا اوامرنا بمنع الستائر. مثلما تخفي القبلة تخفي المؤامرة. . كالحة. ستكون كالحة ما دامت النافذة. ولغرفته أربعة جدران. أربعة جدران لأربع زوايا. كل جدار يمتد من الأرض حتى السقف. وسيدنا الملك ليس في الجدار.

صورة قـ. . . أمّه أو أخته أو حبيبته. هي قـ. . . لأنها تضحك. وكل هذه الكتب. . . غلاف احمر للقديس اوغسطين. مع انه اصفر. هذه (الين) لا تعجبني. مشبوهة مثل الهيروين والكوكايين. مثل هذا الأصلع أبو لحية. نسيت اسمه. اذاً لمن أصدرنا قانون محو الامية. ما دمنا أصدرنا القانون يجب ان تكون هناك أمية. وهؤلاء يخبئون المؤامرة تحت أظفارهم. مزقها. ليس فيها إلا القمل. وما به القمل. دليل على دليل لا يقبل الدحض. خذوه. اقلعوا البلاط. وتأكدوا ان المحبرة ليست للحبر السري. رأيت فلماً امريكياً يخبيء فيه الجاسوس وثائقه في

عكـازه. ويـدعي العمى. العمى بعيونكم. غرفة بحجم المرحاض ولا ترون غير هذه الـ. . اقلبـوهـا. وأنت أبـو أنف: يجب أن تشم جيـداً. كم مرة فعلهـا. وهو عنـدنـا. اعني ليس هنـا. عنـدنـا تعني سقط في الفخ. والدليل انه عندنا. الذين عنـدنـا لا يحتـاجـون الى دليـل. لانهم لو كانوا بلا دليل لما كانوا عندنا. تماماً مثل الملك. الملك بلا عرش ليس ملكـاً. والعـرش لا يوجد دون ملك. . تمام مولانا. قلبناها فوقاني تحتاني. . سجلوا: عنده كتب. وفراش مقمل. وصورة.

غـرفة . . .

شتـاء وليـل وشتـاء جاف. الفـراغ أكـل الأشيـاء. فاقرأ بيديك الجدران. تحسس برودة الاسمنت. أكلت العتمة عينيك فلم يبق إلا اللمس. واعتاد أنفك الـرائحـة. لم يبق غير اللمس. جدران خشنـة من اسمنت خشن. خدوش هنا. كتابات يد لم تجد إلا أظافرها لحفر علامات المرور. نهار أكله الليل. وليل أكلته العتمـة. . فاخـدش هنـا فوق خدوش من سبقـوك. من سيقـرأ ذكـريات مرورك الطويل. قد تكون الأخير أو الأول أو المليون. . تلمس الجدران الخرساء. وحدها الجـدران تمسـك هذا الفـراغ. فراغ هائل بين الجدار والجدار. ألف ميل. ومسافة لانهـائيـة الى السقف. اسنـد رأسك الى الجدار. الى جدار. حك جبينك على خشـونـة الاسمنت. وافتـح خطـواتـك لرحلة طويلة من النهـاية الى النهاية. من العـرض الى قرون الثـور. ما لون بنطـالـك. مسمـوح لك ان تنسى. ان تطلق نسيانك في الفراغ. الرغبة تحتاج الى ضوء. الأحلام الى زمن. الخيال الى أفق. وانت بين الجـدار والجـدار بزّاق في الملح. برغشـة في الـزيت. فامضـغ الفـراغ. جراحـك أيهـا الحلزون. وعض على معصمك. وحده معصمك قابل للعض في هذا السـديم. مشّـط الفـراغ باصـابعـك.اصفعه. ابصق عليه. قلبه. امضغه. يكتب لك الاتسـاع شرنقـة موت. انشر موطىء خلاياك على آخر الوجود. وتذكر

وجـوههم . مسـاخـر واتجـاهات معكوسة . وأنت في الفراغ . يلوك خلاياك الفراغ فتشبث بالجـدران . والحس بيـديـك مركـز الكـون . لم يبق لك حقيقـة معلنـة إلا الاسمنت . دفـاتـرك الاسمنت . وأظـافـرك للكتـابـة . فاكتب صوانـة جرحـك . واحسب زمن الفـراغ بالاضـراس التي تسـاقطت من فمـك . ستأكلك الجدران . ستأكلك الجدران .

الغرفة . . .

كانت هنـا على الجـدار والجدار يضحك . وجدائلك تطير ولا تبتعد . بقي الجـدار . واختفت الضحكـة . جاءت الـديـنـاصـورات وأكلت الفـراغ . شاخت الأشيـاء . يبس الجـدول ونضبت الصفصـافـة . بقي الخشب للسوس . والسقف للعنكبوت . ينبت الطحلب على جلدك - وأنت تعد دفاتر الجوع . ترسم فوق رماد الوقت مواء قطط شبقة . وتعلن ليلك الموحش .

ها يداك عودان من القنب . فمك مغارة للذباب الأزرق . كانت هنا على الجـدار . ومـا أكثـر ما بحثت وانتظـرت ان يرسم الجـدار تحت حراشفـه المتساقطة جدائل تطير ولا تبتعد . ضحكة الينابيع والغيم . فافتح نافذتك وارم كل الاشياء . لا بد من فراغ وحرية ليرقص الهواء . متسع لرئتيك ورنين قلبك - اذا جاءت فأين ستجلسها ، التي أخذوها . أو مزقوها . أو أذابوها . وانت تبحث . تكدس اشياءك بديـلاً عن وجـود . تراكم الاشيـاء . تتراكم . تشيخ . فافتح نافذتك . كانت هنا . اخذوا النافذة ايضاً .

١٩٨٦/١٢/٢٣

قاضم أعواد الكبريت



الى خطيب بدلة :

رداً على الضحك

بدأ الأمر هكـذا : أشعلت سيجـارة ، وظلت القداحة بين يدي ، أراقصها متأمـلاً حركـة السـائـل فيهـا عبر غلافها الشفاف . وحين احتجت الى استخدام أصـابعي لأمـر ما ، ركنت اللعبـة على المنضـدة الى جانب فنجـان القهـوة الذي انتهى . وقلت ان الحـريـة مثـل النار، تضيء وتحرق ، وما من انسان لا يحتاج الى النار. فرد ، وهو يفرقع أصابعه : «الاطفال وحدهم يسألون ان كانت الدجاجة من البيضة أم العكس . نحن نعرف الحقيقة ، لأننا كبار، ولأن الأمور نسبية . والدليل أننـا نتنـاقش» . كأنـما الكـلام ، لا التطبيق هو المطلوب . وهنـا نسيتها تحت ضغط استعجـال الخـروج من رائحـة الكتب غير المقـروءة على رفوف المكتب . ولم أفطن لضيـاعهـا إلا حين انتهى مفعـول النيكـوتين في دمي ، تماماً بعد أن صفّر الشرطي الأزرق فوق رأسـي ، واحتجت لاشعـال سيجـارة . . وأقـول لكم اني كنت في طريقي الى المسلخ . فتوقفت عند كشك من تلك الاكشاك التي لأصحابها وظيفة مزدوجـة ، وابتعت علبـة كبر يت . ومـا كنت لأفعـل لو وجدت عند الرجل قداحة

كتلك التي نسيتها عند صاحب النسبيّة. ودائماً، مذ كبرت، وتعلمت التدخين ـ سراً عن أبي في البداية، ثم علنا بعد استقلالي الاقتصادي ـ كنت أفضل ذلك النوع الذي لا يقبل التعبئة، والذي يذكرك بالعمر، أو الحطب، أو المعتقل. خبرتي في هذا المجال لا تقبل الجدل،فقد امتلكت على مر السنين أنواعاً مختلفة من القداحات التي تعبأ، قبل اختراع النوع الذي أفضله. . قداحات ذات الحجر، وأخرى بالبطارية، وأخرى بالمولدة الآلية للشرارة، وكانت جميعها تنتهي الى التعطل. أسمع ان هناك أنواعاً منها تساوي الواحدة منها راتبي، بعد ثلاث زيادات بثلاثة مراسيم، مضروباً بخمسة، أو ستة، ذلك أنها من الذهب، ووزنها ثقيل، فأعجب كيف يحتمل حاملوها كل هذا الثقل مع خفة يدهم، وثقل أراواحهم، واتساع ضمائرهم. وكنت في طريقي الى المسلخ.

وما أسوأ استخدام علب الكبريت، أقول لكم. حجمها مزعج في الجيب، ونسيانها سهل في أي مكان، وانتقالها الى جيوب الآخرين بسيط للغاية، ذلك انه من الصعب، حين ترى محدثك يبرهن لك ان التجارة شطارة، وان الربح حلال، فيحملها بين يديه، وحين ينهض، يدسّها في جيبه، فتترفع عن القول له: هذه كبريتتي! وقد سرق جملاً من قوْتك، فلم تصرح في وجهه: سرقتَ جملي. ذلك أن القانون لا يعترف أنك مالك إبل بعيداً عن الصحراء. ثمنها بخس، وهي أرخص سلعة متواجدة في أسواقنا، بحيث تضطر الى دفع ضعف ثمن الواحدة، لأن أصغر قطعة عملة معدنية متعارف على تداولها تساوي ضعف الثمن، بعد تحول الفرنك والفرنكان الى تذكارات للأيام التي كان الحليب فيها لا يمتزج مع الماء، والنحل لا يأكل القطر. وتشابه هذه العلب المنسوخة يودي الى صعوبة اثبات ملكيتها.

كنت في طريقي الى المسلخ ـ سبق وقلت لكم هذا مرتين ـ ولأن جيوبي كانت معبأة بالقلق، الناتج أصلاً عن فراغها، فقد وجدت أن من الأفضل عدم تحميلها بأكثر مما تتسع، وأبقيت الكبريتة في يدي، مختاراً المشي على انتعال السيارة

العامـة. فالسيارات في مدينتنا، تعرفون، اذا استثنينا مقاطعة هونغ كونغ، تتمتع بميزة أعلى كثافة سكانية في العالم. مضافاً اليها ميزة السلامة الناتجة عن البطء، وفوضى الصعود والهبوط، واعتصار الروح. والمسافة غير بعيدة، من ساحة التحرير الى مشارف جوبر، حيث المسلخ الذي أقصده، كما سبق وأخبرتكم ثلاث مرات سابقة!

انعطفت جنوباً عند مفترق برج الروس، ثم شرقاً من احدى جادات الصوفانية. الجادة التي فيها المخفر بالتحديد. ثم ـ آه من (ثم) هذه التي لا بد منها ـ أخرجت عود كبريت، ووضعته بين أسناني. وهذا الوضع الفلسفي، الجدير برواقي، يسّر لي الوقوف، وتأمل حديقة الصوفانية، والنهر الذي يخترقها، والمتشكل من رافدين يلتقيان عند مدخل الحديقة. نهران من الماء الآسن. مولياً ظهري للبيت الذي ظهرت فيه أعجوبة الزيت. وكنت سأستمر في هذا التأمل حتى موعد انقطاع الكهرباء اليومي، وعود الكبريت بين أسناني، لولا مرور أرتال من الجرذان، تراكضت فوق عشب الضفة، ونزلت سابحة الى النهر، فاختلط لونها بلونه، ولم يبق واضحاً إلّا كتل رؤوسها فوق المسلخ.

.. قذفت عود الكبريت، ومضيت لأضع عوداً جديداً بعد خطوات، ساعدني على اختصار الزمن أثناء انتظاري الصعب لخلو الشارع من السيارات كي أعبر. وكانت رائحة النهر ما تزال تلاحقني، مجتازة معي الحدود بين المدينة وضواحيها.

هنا يبدأ شارع موحل حتى في سنوات الجفاف، تستيقظ على جانبيه حوانيت لحرف متنوعة. عند الزاوية كوخ خشبي لراقع اطارات، وفيما بعده من الجهتين حدّادون ومصلحو كهرباء سيارات، ومخزن لسقط الأبنية، وبائع فلافل، وبائع مسامير، ومخرطة معادن، ومحل للسكب، ومنشرة رخام، ومعمل للجليد.. كنت أحب، على عادة ترسخت منذ الطفولة، التوقف أمام هذه المحلات، وتأمل حركات صنّاعها، وصبيان الحرفة، المتسخون بطريقة عجيبة، وما يدهشني،

كانت الخراطيم المزدوجة التي تقذف لهباً أزرق، أو تلك الكهربائية التي تنثر شرراً لدى اصطدام الرأس بنقطة اللحام . . . أما عقدتي الحقيقية فكانت عند معمل الجليد. أخاف الوقوف أمامه، مع رغبة في الوقوف، لكشف سر أعجوبة تحويل الماء الى قوالب من الثلج. أطلت الوقوف ذات مرة، فتقدم مني رجل يرتدي مريلة من جلد اصطناعي. لم يقل «انصرف» بل ما هو بمعناها: «تفضل». لم أكن طفلاً، ولا بالغاً، لكن الكلمة بقيت تشكل حاجزاً بيني وبين الدخول. هذه المرّة، ولأن عوداً جديداً كان بين أسناني، أفتت خشبه المبتل، وأدفعه بلساني حيث أريده أن يستقر، وهو غير العود الذي وضعته قبل الاجتياز، وقفت أرقب العامل. كان طويلاً الى درجة ملفتة للنظر. انحنى من منتصفه القياسي تماماً، دافعاً لوح جليد الى منصة معدنية كبيرة، هرمية الميلان، الى الخارج، فاستقر اللوح، بعد تزلج سريع، في أقصاها بفعل مصدم، هو حافة المنصة، وقال بلهجة تشبه نغمة تزلج الجليد فوق التوتياء:

«تفضل». فلم أدخل، بل تطفلت بعينيّ الى حيث قوالب الجليد. والقوالب متصلة بخراطيم، والخراطيم متدلية من السقف. توابيت سوداء تتدلّى من مشانق. وكنت أدفع الخوف بتحريك عود الكبريت بين أسناني في تواتر متوافق مع اهتزاز القوالب. قذفته من فمي، وسألت الرجل، وكان من المحتمل انه حسبني مراقب صحة، أو مقدر ضرائب، فهؤلاء أيضاً يستخدمون أعواد الكبريت في ابتزاز زبائنهم: «هل الماء الذي تستخدمونه نظيف؟». أجاب الرجل بصوت ثلجي: «أجل . . حنفيات». وكان ثمة (كرتيلة) * متجمدة داخل لوح الجليد على المنصة، جعلتها الشفافية تبدو أكبر من حجمها الحقيقي، أو أنها بهذه الضخامة حقاً. ولم تكن رائحة النهر قد اختفت، لأن النهر ما يزال مستمراً خلف صف الحوانيت القبلية. والآن دخل عنصر جديد في المضوع هو رائحة الدباغات. ليست رائحة نتن، ولا عفونة، ولا مواد كيماوية لاذعة، ولا غراء مطبوخ وفاسد، ولا جلود يابسة. انها كل هذا مختلط بحيث يصعب فصله. فأشعلت لفافة، مبقياً

العـــود المستهلك في يدي لاستخدامه فيـما بعـد. وسأل ذاك الـذي نسيت عنـده القـداحـة: «لمـاذا تركت الـوظيفة؟» أجبته: «من المؤلم أن يستمر المرء ثلاثين سنة خلف منضـدة واحـدة في غرفـة واحدة، ثم يتقاعد». فرفع حاجبه الايسر، وعندها لاحظت أن حاجبـه المرفـوع أقصـر من الآخـر، وقال: «لكنك لم تكمل العام في غرفتنـا. . يا لعـين. ستعمـل في المصـالـح الحـرة. ومـا زلنـا عل بالـك». أجبت: «سأعبىء الشمس في زجـاجـات البـيرة الفـارغة، وأبيعها للبردانين. هل تسمي هذه مصلحـة حرة؟» وبعـدهـا، باستخـدام لعبـة الألفـاظ، جرني للحديث عن الحـريـة، لأنسى قداحتي عنـده، وأبـدأ عادة مضـغ الكبر يت، وكي أتملص من الموضوع، وهوواسع بلا حدود، أخبرته فجأة اني تركت زوجة أبي في حالة وضع، واني ذاهب لأخطـر أبي. فصـــاح دهشاً: «أمـك؟». قلت: «لا. زوجـة أبي الثـالثـة، فأبي فحـل، (. . . . .)» وكـانت اللفافة قد انتهت حين وصلت أمـام معمـل القرميد الأحمر، وفيما يليه معامل القرميد الاسمنتي، الموحش بجفافه، بحيث يضطـر المـرء الى وضـع عود كبر يت في فمـه ومضغـه، تذكـاراً للصفصاف النابت على ضفاف الانهار.

شمالاً، الى الشـــارع الـــذي فيـه المسلخ. ذرائب وأكـوام روث وحـوانيت لتسويق الكرشة وسوائل الكروش الصفراء المنسابة على الرصيف. وسواقي المياه المتبقيـة من الغسيـل. طرزانـات **، وشـاحنـات يابـانيـة صغـيرة، وسكاكين، وكلابات، وشواء، ومعاليق، ورائحة زنخة، ودماء يابسة على الجدران. وكلمات فاضحـة يتقـاذفهـا أصحـاب الدكاكين دونما حرج وهم يضحكون. وواحد يلف عضو ثور على ساعده ويقول هذا لأمك. وروائح تزكم الأنف، وتضيّع طعم عود الكـبر يت في الفم. فاجتـزت البوابة، وصعدت أربع درجات عريضة، ثم ولجت ممراً طويـلاً مضـاء بمصـابيـح كهـربـائيـة باهتـة مسورة بأقفاص حديدية صدئة. انعطفت في آخـر الممـر الى ممر أشـد عتمة وأقصر، متجنباً في مشيتي البطيئة الرتيبة بحـيرات المـاء على الأرض الرمادية، وأكتاف الجزارين الملوثة. صرت في القاعة

الكبـيرة حيث الضـوضاء الصادرة عن صدى الأصوات البشرية والحيوانية . وكان ثمة ساقية يركد فيها ماء له لون عصير الحشائش. يشق هذا الركود خيط من الماء الـرمـادي . وجثث حيـوانـات معلقـة ، مقطـوعـة الرأس ، مسلوخة ، وأخرى قيد السلخ ، وجلود على الأرض ، ومصـــارين متـــدليـة ، وأعضـــاء ذكـورة معـراة من أصفانها ، ورؤ وس كثيرة تمد ألسنتها خارج الفم ، وكان أبي يركب كبشاً ، ويدفعه بسـاقيـه نحـو الساقية ، جاعلاً من القرنين مقوداً لتوجيهه . وكان ثمة سكين كبيرة بين أسنانه منعته من الكلام حين رآني . وحين صار الكبش فوق الساقية ، احتجزه بسـاقـين صلبتـين ، واستطـاع حمل السكين بيده . . صاح ، لأن ضوضاء الصدى كانت كبيرة : «خير انشاء الله» فاقتر بت خطوة ، وأجبت ، وأنا أرفع عود الكبر يت من فمي : «خير» . ولم أكمل . كنت أتأمل دفاع الكبش الغريزي ضد الموت . بينما راح أبي ، وقد فتل رقبته باتجاهي ينتظر الكلام . تابعت : «زوجتك تلد» . فاستدار الى ضحيتـه ، ورمـاه أرضـاً بحـركـة سريعة من ذراعه التي لا تحمل سكيناً ، وثبته بقدم ثقيلة فوق الرقبة ، ونظر الي منتظراً ، عن كبر ياء وعناد ، أن أتابع الكلام دونما أسئلة منـه . فأضفت : «قـالت أن تذهب ومعـك الـداية» . فانحنى على الكبش ممسكاً قرنه بيده اليسرى ساحباً رأسه الى الخلف ، وبحركة خاطفة حزّ سكينه فوق الرقبة .

وسال الدم ، محدثاً بقعاً حمراء فوق رماد الساقية .

---

* الكرتيلة : الرتيلاء .

** شاحنات بثلاثة دواليب ومحرك انفجاري صغير .

رحلة المكروب الى البلد المحبوب



ملعون أبوك يا أبي . . أية ورطة ورطتني بها يا أبي . . ما طول عمرها أمّي تملأ الجـرة من العين قبل طلوع الشمس، وأختى نوّارة تملأ البرميل مع طلوع الشمس، وأنا آخذ الحمار، وأملأ القربة بعد الظهر، والماء متوفر عندنا، يكفي لشربنا وغسيلنا وسقاية وردات المرحومة ستّي . . أكان ضرورياً، من أجل حنفية ماء، تنقط مثل فرفورة الولد الصغير، أن ترسلني لأتشرشح، مثل هذه الشرشحة في بلد لا أعرفه، ولا يعرفني، وبين ناس لا يقدرون اني ابن المطليّ، وأن جدي كان قسّام المطلي، يفرك المجيدي بين اصبعيه فيمسحه، ويضغط الحجر في قبضته، فيقطر منه الماء؟! . . أم كان ضرورياً أن تنطح رأسك برأس رئيس البلدية، كأنكما تيسين، مع أنك تيس حقيقي، وهو سخلة لها شاربين مزيفين، وربطة عنق، وقلم صيني تقليد الباركر في جيب سترته؟

طبعاً، أنت جالس على مصطبة الدار، تفتل شاربيك، وتصب كاسات المتّة لأصحابك، وتقول: «بعثت ابني الى المدينة حتى أكسّر رؤوس

هالعـ. . . . ، وحيـاة شواربكم، قبـل ما يرجـع تكون الحنفية مركبة . . » ولك! يا أبي . يا نور عينيّ، يا ابن جدّي، يطلع لك ان تروح الى الحقلة، وتكسّر صخرة بقد صندوق ستي الاستانبولي مرتين ونصف، وتزرع مكانها ثلاث زيتونات، لكن الحنفيـة شيء آخـر. . ورئيس البلديـة سخلة، وحيـاتـك سخلة بشاربين، لكنه مدعـوم، وإلا لما عرفـوه هنـا، وأنكـروا دامـر ابن أبـو دامـر المطلي . . زمن عجيب يابـا . . زمن عجـايب، قل أكثر. لكنك لم تجرب . هذه ليست صخرة، ولا جرن حجر، تشيله في العرس، ولا بيت عتابا تقوله عن ظهر قلبك. هذه بلد لا تعرف أمها ولا أباها ولا الذي بناها . . وترسلني من أجل حنفية؟!

لا وشـارب أبيك يا أبي . . ما كانت هذه السفرة ضرورية، لأن الذي ذقته أنا ما ذقته أنت، ولو فعلوا بك ما فعلوه بي لما جرؤت على الدخول على امرأة، ولا كنت أنجبتني . . وتقـول: عيب على الـرجل يحلق شاربه! تمنيت ألا يكون لي شارب حتـى أبكي في ساعـة الـزنقـة تلك . . ومـاذا فعلت؟ لا شيء . . أنت أوصيتني: رح لابن خالتنا . . ـ خالتك أنت، لأن أمي وحيدة، وأنا بلا خالات ـ واشـرح له موضـوع الحنفيـة . . رئيس البلديـة، ابن الـزمطـة، يركب حنفيـات المشـروع لاقـربـائـه وأصحابه والدافعين له . وقل له وصل ثمن رشوة الحنفية الى خمسة آلاف ليرة. والرجـل ابتنى داراً من تركيب عشـرين حنفيـة، والحبل على الجرار. وقل لابن خالتنا ان الموازين في القرية مقلوبة فوقاني تحتاني . . صار طهور الـولـد يحتـاج الى رخصـة من المختـار، وولادة الحامل الى توقيع رئيس المخفر . . وكله: ادفـع . . اذا نهق الحـمار، يدقّ الشرطي عليك الباب ويقول لك: مخالفة. مع ان الحـمار لا يسب الحكـومـة، فهنـاك ما يكفي من الناطقين يسبونها! وحضرة رئيس الجمعيـة الفـلاحيـة يعطينـا، نحن دراويش «المنسيّـة» ربـع كيس علف في الشهر، مع انه يعطي أناساً ما في بيتهم إلا القطط عشرة أكياس للقطة الواحدة، ولأن قططهم مرفهـة، ومعتـادة على الشخت، ولا تتقبـل علف الأبقـار، يبيعوننا علفهم الزائد عن كروشهم بعشرة أضعاف الثمن الذي اشتروا به . . وقل له الى

متى نصبر يا ابن خالتنا ـ ابن خالتك أنت، لأن أمي وحيدة، ولا خالات لي ـ اذا لم تحلّها، وأنت الوحيد الذي أطلعته «المنسيّة» وزيراً منذ أول وزارة عرفتها البلاد، فمن يحلها غيرك؟

فتوكلتُ على الباري، محملاً بدعوات الوالدة، التي لم تخب دعاويها إلا هذه المرة. وبالمائة ليرة التي حللت زنارك وأعطيتني اياها، وأوصيتني: لا تتبحتر. فحفظت وصيتك، وعيني على زوج جوارب صوف. قلت لنفسي هو خارج الوصية، لأنه ليس بحترة. فقط أكل الهريسة هو بحترة.

بالمختصر يا أبي نزلت من الكاراج، وسألت عن حي الأكواخ.. تصور. منذ زمن وأنا أتعجب كيف ان تحسين الهويني، الذي زار «المنسية» بسيارة مرسيدس عسلية، وفقعنا خطاباً، فهمنا منه ان الاستعمار والامبريالية هما سبب سوء السماد الذي وزعوه علينا، فانضرب الموسم. أتعجبُ كيف يسكن في حي الأكواخ. وقلت تجليساً للاعوجاج الذي يسكن دماغي حول المسألة، لا بد ان ابن خالتك تحسين ما زال متواضعاً كما عرفناه، وان المظهر الذي ظهر به بيننا، انما هو من باب الفرض لا السنّة.. وكان لا بد، وأنا أدخل الحي، أن اصحح الاعوجاج من جديد، فحي الأكواخ هو أكواخ بالفعل.. سقوفها من القرميد الأحمر، ولكن أية أكواخ؟ جدرانها من المرمر، ونوافذها من بلّور يطعج الشمس، وحول البلور براويظ، لا هي من خشب، ولا هي من حديد، كأنها معجونة منها..

وأشاروا لي بالاصبع الى كوخ قريبنا وعظيمنا وابن عشيرتنا تحسين الهويني.. وهو في البيت حتماً، لأن اليوم يوم جمعة.. وهو في البيت لأن السيارات كانت كثيرة كثيرة على باب الكوخ.. يخرج منها الراكبون، ويتركون السائق فيها.. وحول سور الحديقة توزع شباب عديدون، عرفت فيما بعد انهم ينتمون

الى جماعـة البصـاصين. . وما ان اقتر بت حتى اقترب مني ثلاثة منهم. . أحاطوا بي من خلف ومـن أمـام. . الى أين يا أخ؟. . . قلت، وأنـا مطمئن الى حسن نواياي: الى بيت تحسين الهويني. . هويتك يا أخ! أعطيتهم الهوية بفخر، وكانت هذه أول مرة أستخـدم فيهـا هويتي الجديدة ذات الحروف النافرة. . أخذها واحد منهم، ومضى خطـوات الى واحـد يحمـل في يده شيئـاً أسود له ذيل طويل، ليس قطـة، وتشـاور معـه، ثم عاد الى جماعته. وبدأت الحفلة من هنا: سين وجيم. . من أين والى أين وكيف ولمـاذا. ثم قرروا اني كذاب، فحلفت لهم برحمـة جدي قسّام المطلي، اني انما جئت من أجل الحنفية. فهزوا رؤوسهم، وابتسموا بخبث: حنفيـة. . ها؟! وبـلا استئـذان، ومـا كانـوا بحـاجـة الى استئذان، مدّ أحدهم ذراعيه، كأنما ليعانقني، ثم بدأ يبحبش في ثيابي. وكان الأمر مقبولاً عندما كانت الدغدغة من فوق. لكنها وصلت الى تحت. . الى تحت يا أبي. . المهم، وجدوا في جيبي سكينـة. . السكينـة التي أحملهـا معي الى الحقـل، ومعلومك تلزم لذبح بطيخـة أو تقشـير خيارة. . وكأنما وجدوا صاروخاً عابراً للقارات، كانوا مضطرين ازاءه الى التكاثر حولي. . . وبعدها عفطوني. . .

وهنـاك. . هنـاك يا أبي أرادوا معـرفة من الذي كنت سأغتاله. . من الذي دفـع لي، ودفعني الى حفلة تحسـين الهـويني؟. . كيف عرفت بتوقيت الحفلة؟. . لماذا اخـترت يوم الحفلة التي يقيمهـا تحسـين الهـويني لضيـوف، عرفتُ أنهم من المفـاصـل. . وأقـول لهم: يا جماعة، الرجل ابن خالتنا، فيزدادون شراسة معي، وهـزءاً مني. . وأقـول لهم اتصلوا به واسألوه، فيهزون كرابيجهم على مؤخرتي، ويضربون. . حتى جاء واحد ابن حلال.يبدو ان جميعهم أولاد حلال، لكن هذا أكثـرهم حلالاً، فحـاول الاتصـال بمـديـر مكتب تحسـين الهيوني. لكن المدير لم يستطع الاتصال مع ابن خالتنا، لأن ابن خالتنا الموقر كان في الحفلة بين المفاصل.

ويضـربـون. . لوكان البنطـال والسـروال ما يزالان على جسدي لتمزقا.

ربـــك ستر، فقـــد خلعـوهما عني، وإلا لكنت عدت مثلما ولـدتني أمي . . ولماذا أحكي ما سأحكيــه لأولادي، وأولاد أولادي . هذا اذا صار، وقـدرت أن أدخـل على امـرأة بعـد هذه الغسلة . . المهم ان بقيـة المـائة ليرة التي أوصيتني ألا أتبحتر بها، وكنت أنـــوي قنص ثمـن جوارب صوف منهـــا بقيت مع السكـــين . . لا هم ذكـــروهـا، ولا أنـا جرؤ ت على مطـالبتهم بها . . وسأحكي لك كيف عدت الى هنـا . . سأحكي لك لتنفض يديك من موضوع الحنفية، أو تمشي كما يمشي بقية الخلق . . تدفـع لرئيس البلديـة، ورئيس البلديـة في النهاية أرحم من اولئك . . أو تستغني عن الموضوع من أوله الى آخره . . ما طول عمرها أمي تملأ الجرّة من العين قبل طلوع الشمس، وأختي نوّارة تملأ البرميل مع طلوع الشمس، وأنا آخذ الحمار وأملأ القربة بعد الظهر . . أكان ضرورياً . . أكان ضرورياً؟ . .



حكاية الرجل الذي رفسه البغل

الرجل ممد قريباً من رصيف الساحة. . هي ليست ساحة ـ نصف. إذ أن النصف الآخر يحتله درج حجري يودي الى محطة القطار. مع ذلك أطلقوا عليها اسم ساحة الحجاز. . ماذا كان بامكانهم تسميتها اذن. نصف ساحة الحجاز؟! . . لم ترد مثل هذه التسمية في التسميات، ولهذا كان الرجل ممداً قريباً من: لا رصيف الساحة، بل ذاك الرصيف القاطع بين اتجاهين للسيارات. بالأحرى اتجاهات. . سبعة: اتجاهان ذهاب واياب من جسر فكتوريا. اتجاه الى الحلبوني يؤدي الى محافظة القنيطرة. أقصد مبنى المحافظة، فالجامعة. اتجاه الى محطة الشحن في محطة القطارات، ومرآب وزارة الزراعة. ثم اتجاه نازل لا اسم لشارعه ، ومن الجانب الشرقي للمحطة. واتجاهان ذهاب واياب في شارع النصر. اذن سبعة. وعلى هذا يمكن تصور أية كثافة سيرية، واختناقات مرورية سيّارية، كانت ستحدث، لولا تواجد أربعة رجال شرطة، يلوحون بأيديهم وعصيهم، كقادة أوركسترا، وينفخون بصافراتهم كحكام مباريات كرة

القـدم، رغم وجـود أربـع أو خمس اشـارات ضوئيـة، تعمـل، بألـوانهـا الحمـراء والـبرتقـالية والخضراء، منتظمة، فيما عدا ساعات انقطاع الكهرباء، بين الحادية عشـرة والثـالثـة. وعليه، أستطيع أن أحدد ساعة وقوع الحادثة التي أدّت الى تمدد الـرجـل قريبـاً من الرصيف القاطع، ملوثاً، لا بدم رأسه، بل بيده الملوثة بالدم، حجـر الـرصيف، ما دمنا في الضحى، والاشارات المرورية كانت ما تزال تعمل. أذكر هذا جيداً، فالساعة إذن كانت بين العاشرة والحادية عشرة. لقد كنت شاهد عيـان، لا على الحـادثـة، لأنهـا فاتتني، بل على تمدد الرجل نازفاً على الرصيف القـاطـع. هذا غير مهم، اذ استطعت أن ألتقـط الحـوار التـالي بين رجـل كهـل مبتعد، كان من الواضح أنه لا يريد متابعة الحدث على الطبيعة، وبين شاب كان يركض باتجـاه المكـان. . سأل الشـاب بطريقة محرضة: «ما الذي حدث؟» فلوح الكهل بيد معروقة، أخرجها لتوه من جيب بنطاله: «لا أدري. . يقولون أن بغلاً رفس أحد المارة!». «بغل؟ بغل؟!» هتف الشاب، فرد الرجل: «لست متأكداً إن كان بغـلاً أو بغلة! الأرجـح بغـل!»، فوسع الشاب خطواته صاعداً من أمام سينما العبـاسيـة الى مركـز الحدث، تاركاً الكهل يعمق قناعاته أن جيل هذه الايام يهتم بأتفه النقاط في الأمور الهامة.

وسـواء كان الـرافس بغـلاً أو بغلة، أو أي كائن آخر، فان حقيقة أن الرجل كان ممداً، نازفاً على الأرض، ملوِّثاً الرصيف، الذي طلته شبيبة الثورة بالأبيض والأسود قبل اسبوع، بدمه، كان حقيقة عيانيّة أمامي، لا مجال للريب فيها. . حقيقة.

طبعـاً لا مجال للريب، حتى لو سُئلت أنـا، لأجبت بهذا الشكل التقريري المؤكَـد: «بغـل رفس رجـلاً». ولكي تصبـح الجملة مركبة على النهج المدرسي، فسأجيب: «رفس البغل رجلاً». . على عكس ما حدث في الحادث القريب زمانـاً ومكـانـاً من حادثنـا هذا. . تذكـرون. . حدث انفجـار في مطعم بشارع النصر. تحديداً في بناية دنكز. لا أريد أن أستطرد وأشرح لكم من هو دنكز هذا. فقط أريد

اثبات واقعة أني كنت شاهداً غير مباشر لأحداثها. . دائماً - ربما لأني رجل قانون. محام - أصل متأخراً بضع لحظات عن ساعة الصفر. . وقتها كنت قد تركت مقر الثانوية الشرعية للأناث (حيث دخلتها لأمر قانوني)، وابتعدت مجتازاً الشارع الفاصل بين محافظة دمشق (الريف) ووزارة السياحة. ثم الحواجز الأمنية لمدخل وزارة الداخلية حتى مكتبة النوري. . لحظتها حدث انفجار هائل. ولحظتها أيضاً تذكرت أني نسيت سلسلة مفاتيحي على منضدة مدير الثانوية. فاستدرت عائداً. والعجيب أن عشرات الناس استداروا مثلي باتجاه الدويّ. ولا أكتمكم. عندنا عادة فضولية. مواطننا يجب أن يكون في قلب الحدث، لا لشيء، إلا ليرجع الى حارته، أو بيته، ويروي ما لن ترويه الصحف. . أنا رجعت من أجل المفاتيح. وكان لا بد أن أسأل: ما الذي حدث؟. . الجواب، حتى قريباً من المطعم: «لا نعرف. . يقولون اسطوانة غاز انفجرت. . »، وبعض المسؤولين (من سأل يسأل) كانوا يجيبون: «لا نعرف» وحسب.

وباعتباري، كما تفضلتم وقرأتم، رجل قانون، أقول إن مواطننا اعتاد التشكيك في أمر انفجارات اسطوانات الغاز بصورة غريزية، بلْه الانفجارات عامة، حتى ولو كان انفجار بالون أطفال. . ميل الى التضخيم. . لماذا؟. . ليس عندي جواب. . في حين أن رفسة البغل، التي مدّدت الرجل نازفاً، قريباً من الرصيف القاطع، كانت دون تشكيك.

تصوّروا معي الاختناق الذي حدث هناك. . أحد الشيوخ قال عنه إنه يوم الحشر. السيارات تملأ خمسة مداخل، بهياكلها وهدير محركاتها، ونفيرها المصم للآذان. وفوق هذا، مئات. . لا أقول ألوف. . فرجل قانون مثلي، يجب أن يكون موضوعياً ودقيقاً في مثل هذه المسائل. . عدد لا يزيد عن سبع عشرة مئة مشاهد. . لم يكن همهم مشاهدة الرجل المبطوح على الأرض، فأغلبهم لم يكن قد عرف بالحادثة، انما جذبهم الازدحام الطاريء، وفكرة أن شيئاً طريفاً يستحق المشاهدة. . ويا من تستمعون الآن (أو تقرأون) قصتي: شهود الحوادث كثير ون

كثيرون، وحين المحكمة لا يأتي شاهد واحد. . ماذا تسمّون هذا؟ عدم ثقة؟ استهتار؟ . . أنا أسميه خوفاً. ويا سادتي، يا من أروي لكم هذه الواقعة، وقد كنت شاهد عيان فيها، كما تفضلتم واستمعتم لي، أوقرأتم حتى الآن، وقد اقتنعتم أن ما أرويه هو حقيقة موضوعية ثابتة، أقول لكم، بصدق، إن المشكلة لم تكن تكمن في الرجل الممدّد النازف على قارعة الرصيف (لاحظوا التعبير الجديد: قارعة الرصيف)، ولا في سبب تمدده ونزفه، ولا في الاختناق المروري الذي حدث في نصف ساحة الحجاز. . المشكلة كانت ببساطة كما يلي؛ رجاء لمنضد الاحرف وضع الجملة بالبنط العريض:

كيف وصل البغل الى نصف ساحة الحجاز؟

والسؤال ليس سهلاً. . ليس مثل سؤال: كيف وصل الثعلب الى عنقود العنب. وليس مثل: كيف وصلت الحالة الى ما وصلت اليه. . ولا أجوبة، لأن الأجوبة الصحيحة تحتاج الى جرأة. . لكن في حادثتنا هذه يمكن وضع احتمالات. . أو فرضيّات. . سيّان. قبل هذا سأجيب عن تساؤل راود ذهنكم، لا شك، هو: لماذا لم ينقل المصاب مسعفاً الى مشفى؟ . . يوضع في أية سيارة عابرة فتمضي زاعقة به؟ . . ذلك لأن وصول سيارة اسعاف سريع من المشفى صار أمراً مستحيلاً بعد أن سُدّت الدروب بسيل السيارات. ولا أشك أن الجواب خامركم أيضاً، فالرجل، ببساطة، كان قد مات ملوّثاً، قبل موته، الرصيف القاطع بدمه. . وفي هذه الحالة، تعلمون، يُغطّى المغدور بأي غطاء متوفر، وفي حالتنا هذه، الجريدة اليومية هي الأقرب الى منطق الأمور. وقد غطي فعلاً بالأجزاء الثلاثة لجريدة يوميّة لها عنوان أزرق. إلا أن الفضول دفع أحد المارة الى سحب الغطاء قليلاً عن وجه الرجل، بحيث استقر طرف الجريدة تحت أنفه، وغدا كما لو كان يقرأ بعينيه نصف المفتوحتين. ومن سخريات القدر، أن تحت هذا الأنف كانت تقع زاوية مؤطّرة في أعلى الصفحة الأخيرة من الجريدة اياها ـ أقول هذا، وقد عاينت الأمر من بعد ربع متر فقط ـ وأن الزاوية كانت ساخرة، لكاتب

صحفي من معارفي، يسمي نفسه وليد معماري . . . ولحظتها قررت شراء عدد من الجريدة، بعد المعمعة، ذلك لأن عنوان الزاوية المذكورة كان على الشكل التالي: الثمن البخس للمواطن النحس.

كيف تسلل البغل الى الساحة. أقول: ما من أحد بين جمهور المحتشدين استطـاع ان يعطي جوابـاً جامعـاً مانعاً . . وأقرب الأمور الى المنطق أن البغل جاء الى سوق الهـال القـديم مُحمـلاً بالبقدونس والنعناع والبقلة والكزبرة. . وكثيراً ما يحدث أن الفـلاحـين أصحـاب أراضي الغـوطـة التي صمـدت في وجـه الـزحف الاسمنتي، والمتـواجـدة في المـدينـة كواحات وسط صحراء شاسعة، يجيئون على دوابهم الى سوق الهـال لبيـع ما ينتجـونـه، مُفَـرَّقـاً، حاجبين بذلك عن الوسطاء هامشـاً كبـيراً من الربح. . وطبيعي أن الرجل ربط بغله، أو بغلته، في مكان ما، بعيـداً عن بسطتــه الخضـراء، كي لا يزعـج زبـائنـه، ولا يتعـرض لمضـايقـات الشرطة. . وبطريقة، أو بأخرى، أفلت الحيوان من رباطه، ومضى يستطلع معالم الحضارة في مدينتنا العامرة. . وبهذا لا بد أن يكون قد اجتاز معبر المشاة من نهاية جسر الثورة، أو تسلل تحت الجسر، وهذا يفرض افتراضاً جديداً، انه لا بد مرّ من السوق العتيق، وزكمت أنفه ذبائح اللحم، وزنخة السمك، فاضطر الى المتابعة نحـو ساحـة المرجة. والاحتمال الأكبر أنه مرّ من أمام وزارة الداخلية. بالتحديد: أمام المدخل الذي تلج منه سيارة الوزير، ذلك لأن الشارع الخلفي للوزارة مصان بحاجز معدني متحرك. . ومنه وصل الى امتداد شارع ٢٩ أيار، فساحة الحجاز.

طبيعي أن هناك احتمالاً آخر. أن يكون قد عبر من شارع رامي صاعداً الى شارع النصـر، وفي هذه الحـالـة، اذا ثبتت، هناك احتمال أن يكون البغل قد جاء من المرآب العام (البارك). . أما سبب تواجد بغل في (البارك) فهذه مسألة أخرى. .

قلت أن للنصف السـاحـة التي جرت فيهـا حادثـة الـرجـل والبغـل سبعة مداخــل، وطبيعي أني لم أعـدد. وأفنـد احتـمالات أن يكـون البغـل قد جاء من

أحـدهـا، وعلى سبيـل المثـال، لا يعقل أن البغل جاء من الجامعة، ولا من شارع بيروت، ولا من سوق الحميـديـة، أو الحريقة، أو من شارع خالد بن الوليد، مع أن كل هذه الاحتمالات ممكنـة، اذا افـترضنـا أن مالـك البغل يعاني من صعوبة المـواصـلات الـداخليـة، فقـرر استخـدام هذه الـوسيلة، لا كحـلّ فردي، بل كاحتجاج ملفت للنظر.

ويحـدث، أيهـا السـادة، أن سيـارة عابـرة تدهس رجـلاً، ويهـرب السائق بسيـارتـه من مكـان الحـادث كي لا يُوقف على ذمة التحقيق، لأن ابتعاده يتيح له فرصـة أن يظـلّ طليقـاً بشكل رسمي، تحت قوة الكفالة المالية، حسب القانون، وفي هذه الحالة، بالطبع، يمكن معرفة السيارة الداهسة من رقم لوحتها، ونادراً ما يفلت الـداهسـون من فطنـة أحـد المـارة، بالتقـاط الرقم.. وعليه، أقول متابعاً ملابسات حكايتي، إن البغل لم يعثر له على أثر غبَّ الحادثة، وهذا ما يتيح لي أن أطـرح قضيـة هامـة فاتت المسؤولين، ملخصها: أن توضع للبغال لوحات أمامية وخلفية، عليها رقم متسلسل، يعرف كل بغل به. وليس من الضروري أن تتولّى مديريات النقل هذه المهمة، اذ يمكن ان تناط الأمور بوزارة الزراعة، أو مديريات البيطرة في المحافظات.

أما لماذا بقي الرجل المغدور ممدداً وسط الشارع، فذلك لأن أمر نقله يتطلب حضـور النـائب العـام، والطبيب الشرعي، وجوقة كاتبي الضبوط، ليقرروا موت الـرجـل أولاً، ثم ليحدّدوا مسؤولية الجاني، والجاني هنا بغل، ليس إلا، لم تعرف هويتـه، ولا عرف صاحبـه. بعـدهـا، لا بد من نقـل الجثـة الى المشرحة، لمعرفة صاحبها، وتحديد أسباب الوفاة، وهي هنا كسر في عظم الجمجمة، نتج عنه جرح رضي مع نزف شديد أدى الى الوفاة.. وهذا في عرف المحاكم غير مقبول، إذ لا بد أن يثبت بما لا يقبل الشك أن الوفاة كانت من الرفسة حتماً، وأن الرجل لم يمت بالسكتة القلبية قبل لحظة واحدة من رفسة البغل..

اقـتربت امـرأة مني، لا أقـول فائقـة الجمال، إنما جميلة، مع أناقة في الملبس دون بذخ، وان كانت رؤيـة المـوت الممدد على الرصيف القاطع قد أفسدت براءة نظـراتهـا. . أمسكت ذراعي وشدته ـ وفي مثل هذه المواقف تغدو الحركة طبيعية للغاية ـ سألت:

ـ يا أخي ماذا حدث. قوّسوه؟!

ـ لا يا أختي. . رفسه بغل.

شهقت: بغل؟!

وبعـد أن استـوعبت جوابي المفـاجىء الغـريب، بين مصـدقـة ومكـذبة، سألت: من أين جاء البغل؟

أجبت: قِلّة بغال في البلد؟؟

هزت رأسها: معك حق. .

وكان في جوابها اقتناع لا يصدق.

طوال عمري ـ أقصد الجزء الواعي من عمري ـ كنت أتعجب من أين تأتي بعض الاشخـاص أفكـار جديـدة مبهـرة، لا تخطـر في ذهن عادي. . وأضـرب مثالاً. . في احدى المحاضرات. .

كانت المحـاضـرة لأستـاذ جامعي مرموق في كلية الاقتصاد، وكان عنوانها «النفـط العـربي كسـلاح في المعـركـة مع العـدو». . تصوروا هذا العنوان الجاد، مضافاً الى جدية الأستاذ الجامعي. . ربطة عنق تحت بذلة كحلية أنيقة، وداخل الـربطـة عنق المحاضـر كعنق نعامة، وجوزة حلقه التي ما فتئت، خلال ساعة من الـزمن، تصعـد وتهبـط مثل طابة بينغ بونغ متوازنة على فوهة نافورة مياه. في حين زجاجـتا نظارته تتركزان على أوراقه المكتوبة، وعيناه على الجمهور، وكان ما يفتأ بين الفينة والأخرى يمد أصابعه ما بين ياقته المنشّاة، ورقبته الطرية، في حركة تنم عن عصاب طبْعيّ. وقد لاحظت أن حركته تلك لا تأتي إلا عند نقطتين: عندما يريد أن يُدلّل على فقرة أو جملة هامة في المحاضرة، أو عندما يريد أن ينبه الجمهور

الى انتهاء مقطع في حديثه المدعم بالأرقام والتواريخ . . وأما الجمهور فكان صامتاً صمت المصلين في موعظة الأحد، يحاول الواحد منهم أن يقلل من رفّة أهدابه كي لا يظن أنه غير فاهم مستوعب لما يقال، أو غير مهتم، أو غير مثقف . . وطبيعي أن مدير المركز الثقافي، صاحب الدعوة، كان عليه أن يظهر اهتماماً واستيعاباً يفوقان الجميع، ولهذا احتل مقعده في الصفوف الأمامية، بعد ان قدّم المحاضر، وعاد فجلس، لاوياً رقبته الى جهة اليسار. اليسار . أنا متأكّد . . وأبقاها على هذه الحالة التي أصبحت مريحة له، بعد أن تخدرت عضلات رقبته . . وحين أنهى المحاضر محاضرته، فتح باب المناقشة، والمناقشة لم تتعدّ بعض الاستفسارات عن أرقام وردت هنا وهناك، وبعض طلبات اعادة بعض المعلومات . . حتى ليظن المرء أن المحاضرة استوعبت بمجملها دونما اعتراض، كأنما هي الزيت صبّ في دورق شفاف . . وكان من الممكن لهذا الجو أن يستمر الى ما لا نهاية، لولا أن وقف أحد الحضور، وهو شاب كان يرتدي قميصاً صيفيّاً، غير آبه بطقس كانون القارس، تلمع في عينيه نظرات متوفزة . . كان حديثه على النحو التالي: نرجو من السيد المحاضر أن يبين لنا علاقة النفط بظهور الخيار الأحمر في أسواقنا . .

هنا انفجرت القاعة، لا بالضحك، كما تتوقعون، ولكن بسكون رهيب. نعم . انفجرت بسكون رهيب . . لا تظنوا أن ثمة خطأ في التعبير، لأن السكون مثل الصخب، يمكن أن ينفجر . . وعندي مثال فيزيائي للتوضيح : قنينة زجاجية ستنفجر في حالتين : إذا عُبئت بالبارود، وأُشعل لها الفتيل، أو عبئت بماء زلال، وتركت ليجلّد الماء فيها . . المثال صار واضحاً لكم . .

بعد انفجار السكون هذا، حمي وطيس المناقشة، وامتد من الخيار الى احتكارات السوق . الى منع الخيار الساحلي الرخيص من الوصول الى الأسواق الداخلية، من أجل تصريف الخيار الأحمر المستنبت تحت البيوت البلاستيكية . ثم طرحت جملة من المشاكل حول السكن والزيت، ومعامل الورق والسكر، وزراعة الشوندر، والمواصلات الداخلية، ومواسم التبغ، وخراب بيوت المزارعين،

وامتيـازات المسؤولـين، وتشفيـط السيـارات، والتهـاون في مكـافحـة التهريـب، وعمليـات التهـريب الكبـيرة، المغطـاة بقـوة النفـوذ، والسوق السوداء، والقطط السـمان، وعمـولات المشـاريـع الفاشلة، وانقطاع الكهرباء، والتصحر، وأملاك الـدولـة المؤجـرة الى الأقـربـاء بعقـود صوريـة وبـدلات شكليـة، وشُـح المياه، والمخـالفـات السكنيـة، ومصـروفـات الفخفخة، ومهرجانات الرياضة، وفقدان الأدويـة الضـروريـة، وفسـاد الأسمـدة، وغـيرها من المواضيع / التي لا تعد ولا تحصى. وقد حمي وطيس النقاش، بحيث أن أحداً لم ينتبه الى المحاضر حين جمع أوراقه، وغادر القاعة متخفياً ببذلته الكحلية المعتمة.

اعـذروني لهذا الاستطـرادِ الطـويـل، فأنـا ـ يقـول عني أحـد أصـدقـائي القضـاة، ولـه المـام واسـع بعلم النفس ـ استطـراداتي في المحكمـة، وإطـالاتي الدفاعية، ناتجة عن كبت مُورس عليّ في طفولتي، وما يزال يمارس من قبل زوجتي، طويلة اللسان، وآخرين. . .

كنت أحكي قبل الاستطراد، وقد نسيتم الموضوع حتماً، عن اولئك الذين أتعجب من أفكارهم الجديدة المبهرة، وأضيف: المفاجئة، التي لا تخطر على ذهن عادي. . ففي معمعـة حادث الـرجـل الـذي رفسـه البغل، سأل أحد الحضور، وكان واضحاً من ميلان كتفه أنه طبيب أسنان، سأل بشكل لا يترك مجالاً لإجابة: ولمـاذا لا نقـول إن الـرجل الممدد هو صاحب البغل، وقد لحقه ليمسك به، وحين توصل الى امساك الذيل، تعرض لرفسة ـ هي رد فعل طبيعي من البغل ـ الذي تنفس لأول مرة طعم حريـة التجـوال في مدينـة لا تنص قوانيهـا على منـع تجوال البغال؟ . . أي ذكاء . .

شيء خطير أيها السادة. . أن تطرح سؤالاً، وتصادر كل الاجابات عليه، انه الديكتاتورية بعينها. وأذكركم: في داخل كل منا نابليون صغير، لا يحتاج إلا لعشرة مصفقين كي يضع يده على معدته، ويلتهم العالم.

استنفرت قوات كبيرة من رجال المرور، ثم استعين برجال الاطفاء، وبرجال آخرين ليس لديهم بذّات رسمية . . ليس بدافع القبض على البغل، انما لحل أزمة الازدحام الحاصلة في النصف الساحة المسماة بالحجاز . . وطبيعي أن السيارات الناقلة لهؤلاء ما كان بوسعها التقدم خطوة واحدة الى أمام، ولذا كان أفرادها يترجلون بعيداً، ثم يتقدمون بخطوات سريعة، ولكن رسمية . وكان ثمة ضابط يحمل مكبراً للصوت، يضعه أمام فمه، يكرر نداءات الى الجمهور كي يبتعد . . وكانت العبارات تبدأ بكلمة : نرجو . . ثم وجد أن الكلمة غير مناسبة، أو لم تعد مناسبة، فراح يصرخ بشتائم، لا أجد ضرورة فنية لذكرها . . في حين بدأ أحد المساعدين، وبعض مرؤوسيه، يضربون المتجمهرين بعصيّ من خيزران . . ضربات عشوائية حقيقية، لم يفسد قوتها وفعاليتها سوى نسبتها القليلة، اذا ما قيست بعدد النظارة . . وهنا لا بد من القول إن الجمهور لم يكن بهذه البلادة التي تتصورونها ـ بلادة الذباب على كومة من قشور البطيخ ـ لكن الحقيقة أن مغادري الساحة كانوا متساوين مع الداخلين الجدد . .

لم تعد الأزمة أزمة سير في منطقة حساسة من المدينة، ذلك أنها امتدت بسرعة غير متوقعة الى جميع أطراف المدينة، واليكم شهادة شاهد عيان من ساحة باب توما، روى لي وقائع ماراه . . مرّت جميع الباصات من نقطة انطلاقها في الساحة، ومضت، ولم تعد . . وعليه فإن اعداداً كبيرة من الناس وقفت تنتظر، في حين توقف عدد كبير أيضاً يتساءل عن سبب وقوف العدد الأول، وينتظر الاجابة، دونما جواب . . بل امتدت الازمة أكثر من ذلك . . الى الضواحي والبلدان القريبة، وعلى سبيل المثال، لا الحصر، أحد سائقي الميكرويات العاملة على خط القطيفة، جاء الى دائرة الاحوال الشخصية لأمر شخصي، فحوصر في ساحة الحجاز داخل أحد السرفيسات، ولأن الأنظمة، وعلى الأغلب، الأعراف، تقضي أن لا يتجاوز سائق دور زميله، وكان الدور عند

الـرجـل المحـاصر، فقد توقفت السفريات من والى القطيفة، وتكررت أزمة باب توما ثانية. . وقيل إن الأزمة امتدت الى أبعد من ذلك بما لا يتصوره خيال روائي خصب. . فقد تصادف ـ على سبيل المثال أيضاً ـ أن أحد المواطنين الحلبيين كان يهتف لذويـه من مبنى الهـاتف الآلي، وحـين سأله المهتوف له عن سبب الضجيج الذي حوله، روى، على الهاتف، حادثة الرجل الذي رفسه البغل، وعن طريق خطأ في الفهم، انتشـر الخـبر من عامـل التصنت في حلب ـ وهذه عادة ذميمة من عادات العـالم الثـالث ـ وكـان الخـبر على الشكـل التالي: أن البغل رفس مواطناً حلبياً في الشـام . . . بعـدها، تشابكت خطوط الهاتف من حلب الى العاصمة، وتـزاحم النـاس على مكـاتب السفريات، كما يحدث أيام العيد، كل يريد السفر للاطمئنـان على قريب له. وسيـذكـر الحلبيون ذلك اليوم، حيث تضاعفت أجور النقل ثلاث مرات، دون قرار مسبق من مجلس المحافظة، أو مكتبه التنفيذي.

وقيـل إن طائـرة عائـدة لشـركـة الطـيران العـربية السورية، تأخر اقلاعها لأسبـاب تمت بصلة الى حادث البغـل، وإن كان الخـبر لم يتأكد لي بشكل دقيق، أضف الى هذا أن تأخر اقلاع «السورية» هو أمر طبيعي.

أيها السادة، اعذروني ان كنت قد أطلت، وكان بامكاني أن أستمر الى ما لا نهايـة، حتى تغـدو قصتي هذه رواية كاملة، أو أختصر الى حد يصبح الموضوع بحجم خبر في جريـدة. . وكـان بامكـاني الاستمـرار في متـابعـة الحـدث على الطبيعـة، لولا أني نظـرت الى ساعتي، ولحظتهـا أدركت أن موعـد الجلسـة التي سأدافع فيها ـ عبثاً ـ عن مستأجر قاضاه مؤجره لأخلاء البيت بحجّة أن الأول غير في مواصفات المأجور، بأن أضاف درفة جديدة للنافذة بدل تلك المكسورة، وكان المدّعي لا يقبل بإزالة الجديدة فقط، إنما يريد القديمة، والقديمة كسّرها الأولاد، وأحرقوها في غمرة عبث طفولي غير مسؤول. . .

وصلت الى قاعة المحكمة في الوقت المناسب. . لم يكن سوى القاضي يجلس خلف منصته، وأمامه مطرقة العدالة. . لم يحضر المدعي، ولا المدعى عليه، ولا الشهود، ولا طاقم المحكمة، بسبب ارباكات المرور التي كان سببها حادثة الرجل الذي رفسه البغل. . لحظتها وجدت الوقت مناسباً لكتابة هذه القصة، ومن ثم ارسالها الى الاستاذ عبد النبي حجازي، رئيس تحرير صحيفة الاسبوع الادبي، مع صديق عضو في اتحاد الكتاب. . رجاء للأستاذ حجازي، نشر القصة على مسؤوليتي. فاذا حال الحجم دون نشرها، فأنا على استعداد لعمل ملخص لها. والأفضل أن تنشر مفصلة، لخدمة القراء، والجمهور، والعدالة. . .

حامل الأمانة

وليد معماري

صباحات الأحد الضائعة

«ست الكل» لم تكن جدتي. ربما كانت إحدى قريبات الجدة، ومع ذلك كنت أناديها كما تُنادى الجدات عندنا: ستّي! وأمازحها، وأنا أعبر باب الدار المـوارب دائماً: يا ستّي.. يا ست الكل.. فتعرفني من صوتي، وترد، بحيث أسمعها قبل أن أراها: «ادخلْ يا عيني.. ردّ الباب وراءك»... فأعيد الباب الى وضعه، وأدخل حيث أعرف أين تجلس، وما الذي تفعله.. دائماً في الضحى، في مثل الساعة التي أزورها فيها، تكون تحت نافذة غرفتها، جالسة، مسندة ظهرها الى مخدّة كبيرة. المخدة ذاتها كل مرة.. في حجرها كبكوب خيطان بيضاء، وخيط يصعد من الكبكوب، ويلتف حول رقبتها، بالأحرى، حول منديلها الأسود، ثم ينحدر الي يدها، عبر السبّابة والخنصر، بينما أصابع اليد الأخرى، تمسك سنارة صغيرة تتحرك بآلية سريعة، محولة الخيط الى منديل بديع النسج.
وغالباً ما كانت ست الكل تخترع رسومات جديدة لا سابق لها في هذا المجال، أو تنسخ رسوماً نادرة، نسجت قبلاً في مكان ما من العالم، ولم يسبق استنساخها في البلدة..

ـ لمن كل هذه المناديل يا ستي؟
ـ آه . . المناديل؟ . . هناك دائماً رؤوس تحتاج الى المناديل . . هذا المنديل لعروسك .

فأضحك . . أقول لها إن العروس تحتاج الى فلوس، وأنا على باب الله . . طالب، أمامه ثلاث . أربع سنوات للتخرج . . فتبتسم دون أن ترفع عينيها عن النسيج . تقول : عندما تحبك امرأة بصدق لن تنظر الى مالك . . وأجيبها : هذا كان في زمانكم . . وأما زماننا فزمان مصلحة . . معك قرش تساوي قرشاً . . .
وأنهض لأصنع لها ولي فنجاني قهوة، فتدلني للمرة الألف على مكان بابور الكاز، والدلّة، والسكر، والقهوة، والملعقة الصغيرة . وتوصيني : لا تصنعها مُرّة كما في كل مرة . وتنبهني : ضع ما يكفي لثلاثة فناجين . . فأتغابى . وأسألها : هل تنتظرين أحداً؟ فتعيد رسم ابتسامة ذات مغزى، وتقول : يا خبيث!

وفيما أنا أحقن بابور الكاز بالهواء بعد تحمية رأسه بالكحول الأزرق، تحكي هي أي شيء يخطر في بالها . . أحياناً تروي كيف كان جدّي يغازلها، ويخطب ودها، وكيف كانت تصدّه، فأناكدها : لأنه كان فقيراً! . . تخفض رأسها، وتنظر اليّ من فوق نظارتها المكبّرة، وتجيب : من كان فقيراً تلك الايام، ومن كان غنياً؟ . . الفقير له شروال برقعتين، والغني شروال برقعة . . جدك كانت سمعته انه (مشرّاني) .

ـ قولي إن عينك كانت على نايف الدوري . . سحرك صوته . .
ـ صوته كان يسحر . .
ثم تصمت. تمر في ذهنها أغنيات نايف الدوري ، فتدمدم بأغنية من الذاكرة، وتنساني :

«أوف . . أوف . .

ع الـعـين يام الـزلـف . . . عيـني يا مولـيّـا

محلا الـومـا بالـومـا . . . ومحـلا الـعـزوبـيّـا

أووف . .

ولـو رحت أنـا لعنـدكم . . بعـد الـعشـا بنتـفي

ولـقـيـتـكـم نايـمـين . . . وسـراجكـم مطـفـي

مدّيـت ايـدي ع الحبـق . . . لقطـف أني قطـفـي

صاحـت بنـتـاً لكـم . . يمّا . . يمّا . . حرامـيّـة» .

أفتح فضّال الهواء في البابور، فيخفت صوته رويداً، ثم ينتهي، ويبقى وشيشه في الأذنين . . أصب القهوة في فنجانين، وأترك الثالث فارغاً، وأنصت الى باب الدار، عسى يُصرّ كما يفعل كلما فُتح، وتأتي نوال . . وغالباً كانت تأتي، مبكرة أيام العطل المدرسية، ووقت فسحة الظهيرة أيام الدوامات، فلا تتابع الى البيت، بل تتغدّى، ثم تعود بمريلتها الزرقاء الى دوام بعد الظهر.

ونوال كانت حفيدة الجدة . . وكانوا يقولون انها الصورة المصغرة لـ «ست الكل» عندما كانت ست الكل صبية . . الصورة الأولى للجدّة كانت بعد عرسها بسنوات، التقطت بعدما عاد أخوها من البرازيل ومعه تلك الآلة العجيبة التي تحفظ للانسان شبابه في لحظة شباب.

وفي حين أجلس أنا على كرسي خشبي قصير دون مسند، أو أجعل من الكرسي متكأ تحت ابطي، طاوياً ساقي تحتي، أرتشف قهوتي، تدور نوال في الغرفة مثل فراشة، متيحة لضفيرتيها حرية التأرجح في كل الجهات . . تعيد ترتيب السرير النحاسي، المرتب أصلاً . . تنفض غباراً وهمياً عنه . . تملأ ابريق الفخّار بماء جديد . . تمسح بلّور النافذة، وتمر على الصور المعلقة على الحائط، فتصحح ميلان ما أمالته قبل يوم، وفي كل مرة تقول للجدة : هذا المنديل لي . .

وتغمز بعينيها. فترد الجدة: هولك يا يامتي.. وينتهي نسج المنديل، ويبدأ منديل جديد يتشكل بين يدي الجدة، ونوال تحلم بمنديل وعرس.

نوال كانت الابنة الكبرى لابن ست الكل البكر.. الجميع كانوا يزورون الأم ـ الجدة: الابن الأكبر، والأوسط، والصغير، والابنة الوحيدة، وأبناؤهم. وأحياناً يجتمعون عندها جميعاً، بالصدفة، أو بمناسبة عيد.. ووحدها نوال، ربما لأنها الكبرى للابن الأكبر، أو لأنها الصورة المكررة للجدة، كانت تأتي بانتظام، أو، وهذا هو الأرجح، كانت مكلفة برعاية الجدة.. والجدة لم تكن بحاجة الى رعاية وقتذاك، انما الناحية العاطفية، والاجتماعية، وأسباب أخرى... تأتي في الصباح حين تكون في طريقها الى المدرسة. وفي فسحة الظهيرة، حين يكون للدوام المدرسي فسحة ظهيرة، وفي المساء.. وأحياناً تبيت عند الجدة دون إذن مسبق من الأب، أو بطلب صريح منه حين تكون الجدة تحت تأثير وافدة صحية.. وكنت ألتقي نوال هناك.. كنت أحبها دون اعتراض من أحد.

أيام الآحاد كانت تختلف..

كنت أجيء أبكر قليلاً، بملابس أكثر انتظاماً، وشعر أقل تشعثاً، ونادراً ببزة كاملة، وربطة عنق، كنت أظنها لا تليق بطالب فلسفة.. تستقبلني ست الكل بوجه بشوش، وكلمات ترحاب صريحة، وأحياناً تضخّم الترحيب، حين أزيد في أناقتي، الى درجة السخرية المبطنة: «أهلاً بالعريس... فَشَر جدك.. أنت أحلى منه بمئة مرة.. لو كان يبحث عن العلم مثلك، وله هذه الابتسامة الساحرة، وهذا الهدوء، لكنت عشقته دون أن يغازلني».. وتدور في غرفتها، وبقية الغرف.. هنا شباك يجب اغلاقه. كوّة يمكن أن تتسلل منها القطة تحتاج الى سد. مقعد خارج عن رتله يجب ترتيله.. تقول اذ ألاحظ اهتماماتها الصغيرة تلك، إن الموت قريب من الانسان: «كي لا يقولون، اذا متّ، ست الكل غير مرتبة».. كأن الموت ينتظرها خارج عتبة الدار.. وتسقي أصص ورودها،

وتـوصيها: «لا تزعلي. . سأتركك قليلاً. . ». . ويوم الأحد ذاك هو يوم عطلة لسنارة النسيج. .

وتأتي نوال. . الضفيرتان الذهبيتان تحولتا الى ما يشبه الحصان، وقد مُسّد الشعـر الى الخلف مظهـراً صبـاحـة الجبـين، ووحشية العينين الغزالتين، ودقة الأنف، وصرامة الفم الطفل، والشفتين الرقيقتين. ونوال كانت بمجملها كائناً رقيقاً للغاية، ذاك انها (شقة توأم). . مات الشريك، وعاشت هي. . ترتدي، غالباً، ثوباً أبيض بحواش من الدانتيل، يمنحها مسحة ملاك مفعم بالبراءة، أو تنورة كحلية قصيرة، وفوقها قميص أبيض بفتحة صدر مكشكشة، مع جوارب بيضاء تصل حتى الركبتين، وحذاء مدرسي أسود ذا خيطين مربوطين على شكل فراشة. .

واذ يقرع الناقوس للمرة الثانية، تسوّي ست الكل زينتها أمام مرآة مغروزة في طين الجدار، وتقول: «تأخرتُ. . لا تتأخرا عن الصلاة». . ثم تمضي، تاركة ايانا، غالباً، في أرض الدار، لأنها أقفلت غرفتها، وأخذت المفتاح. . أو في غرفة المطبخ. . فاذا كان الجو بارداً أشعلنا الحطب في الموقد، أو قضينا وقتاً على مقعدين تحت سماء مكشوفة، نتجاذب أطراف حديث عن المدرسة، متجنبين أي تخابث، رداً جميلاً على ثقة الجدة بنا!. . ولنقل إن ما بيننا كان حباً هادئاً مثل جدول صغير في أرض سهلة. وما كنا بحاجة الى تأكيدات حسية لهذا الحب، ولا الى كلمات من نوع خاص. هي لم تقل، ولا أنا. . سوى غيرة تبديها على شكل عتاب غاضب، جلهـا مفتعلة، ودفاع ضعيف، مفتعل الضعف من قبلي، وعتاب مني لها لأني انتظرتها في بيت الجدة ولم تأت. فاذا أردنا التخابث، فإنَّ فِعْلَنا لا يتعدّى أن أشدّ لها شعرها أمام الجدة، وأهرب، فتركض لتشد لي أذنيّ، أو تقرص خدّي الى درجة أصرخ فيها من ألم حقيقي. .

ذات أحد تعاتبنا لأمر لا أذكره، وبدت نوال غاضبة الى درجة لم ينفع معها دفاعي، فمضت مبتعدة، وبقيت على مقعدي. وكان واضحاً ان واحداً منا يجب

أن يبدأ الصلح، في لعبة مكاسرة واضحة. واذ طال ابتعادها وصمتها، نهضت اليها.. كانت تتكىء على نافذة غرفة الجدة.. رفعت يدي، ومسحت على ذيل الحصان المنسدل من رأسها.. ولم تثرها حركتي.. ظلت تحدّق عبر زجاج النافذة، كأنما تتابع مشهداً متحركاً في الغرفة.. ورحت أشاركها التطلع لعلّي أكتشف خيالات اكتشفتها قبلي، منتظراً انتهاء حالة الاستلاب تلك... ودون أن تلتفت الي، أو تغير من شدة تركيزها، سألت: «أترى؟» أجبت: «ماذا؟» قالت: «المخدة!».. وتابعت: «مخدة الجدة».. ثم راحت تحكي بصوت كأنما لم يكن صوتها، وتسأل إن كنت لاحظت ان الجدة حريصة على مخدتها تلك، تنقلها حيثما تحركت. اذا نامت وضعتها تحت رأسها على السرير، فان جلست للنسج جعلتها مسنداً خلف ظهرها.. قلت «وأي شيء في ذلك؟».. لعلها ترتاح اليها». قالت:

«لماذا ترتاح الى هذه دون كل هذه المخدات؟. لا.. انها تحتفظ بثروتها فيها، وإلا أين اختفى الذهب الذي كان يملكه جدي قبل موته؟.. نصف صفيحة من الليرات الذهبية، حصيلة عمره كانت معه».. وتذكرت أن شيئاً من هذا الكلام قيل أمامي ذات ليلة في بيتنا، وأن أغلب الحضور نفوه، وأحد الشيوخ قال: صحيح أن نايف الدوري كان ميسوراً، وأنه ترك مالاً وفيراً، لكنه ترك أطفالاً صغاراً، وست الكل ربتهم أحسن تربية دون أن تحتاج أحداً.. فان كانت تغرف من بحر، فالبحر ينضب دون روافد..

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي تأتي فيها نوال على ذكر المخدة.. والمرة الأولى والأخيرة التي تصل فيها نبرة صوتها الى مثل هذه الغرابة والعمق. وبعدها.. بعد هذا الحديث، مضينا، أنا وهي، بعد أن دُق الناقوس للمرة الثالث، متناسين خصامنا، وناسين الحديث الذي روته أمام النافذة.

في الشتاء الأخير لهذه الحكاية. في منتصف الشتاء بُعيد رأس السنة بقليل،

رقدت ست الكل في الفراش. . تزحلقت على جليد الشارع في صبيحة أحد وهي عائدة من الصلاة. . وحُملت الى المشفى. وقالوا هناك: كسر في الساق، وكسر في الحوض. وقرر الطبيب أن من الصعب ان تشفى كسور من هم في السبعين من العمـر. . وأعيدت الى البيت. . وبقيتُ أزورهـا، سوى أني افتقـدت تلك الضحكـة منهـا، والترحاب الصاخب، وافتقدت مزاحها حين تتأخر نوال عن الحضـور، فتغني لي، موحية الى حالي: «بَتْقلّبْ على جمر النـار. . على جمر النار. . ». وتحمر وجنتاي احمرار وجنتي عاشق حقيقي. .

لم أعد أنتظر ساعة مرور نوال، لأن نوال لازمت الجدة في رقدتها ليل نهار، وبداية تقطّع دوامها المدرسي، ثم انقطعت نهائياً، مضحّية بعام دراسي من أجل خدمة ست الكل.

ماتت الجدة صبيحة يوم مشمس من بدايات آذار. . كنت مع جدّي في فسحة الدار حين قُرع الناقوس بدقات حزن رتيبة. . ضغط الشيخ على عكازه بكلتا يديه، ورفع اليّ عينين كليلتين، وأعلن: ماتت!. . وكنت أعرف انه يعني ست الكل، ذلك اني لم أر حزناً صامتاً في حياتي كحزن تينك العينين. . لحظتها هربت الى علّية خربة في دار الجد، وبكيت. .

دُفنت ست الكل، وتوزّع الأبناء ما ينفع من أثاث بيتها، وأبقوا الدار مقفلة على بقايا من سقط المتاع. . والمؤلم لي لم يكن موت العجوز وحسب، بل وموت الأمكنة التي رعت حبي لنوال. . لم يعد ثمة مكان نلتقي فيه. . ولم تعد هي الى المـدرسـة تلك السنـة، وغالباً ما كانت تظل في البيت، تقوم بأعباء العمل فيه مسـاعـدة لأمها. فاذا التقينا في صباحات الأحد، التقينا كصديقين يتخاطبان وبينهما جدار مقبرة. .

شيء ما تغـير في حياة نوال. . أبوها أكمل كسوة الدار التي يسكنها، ثم

ارتفع بطابق جديد، وغيّر في أثاث البيت. . باع القديم واشترى طرازاً حديثاً فاخراً، وزيّنت الأم جيدها بعقد ذهبي. . وحتى نوال صارت تأتي بزينة لم أعرفها فيها من قبل. . أثواب مخاطة بعناية، وشعر مسوى عند حلّاقة، وأحذية ذات كعوب تخفف من قصر قامتها، وعيون مكحلة، وشفاه مطلية، وأصابع مصبوغة. . عزوت الأمر كله الى وضع نشأ في البلد، اذ تحسنت أوضاع أصحاب الصِّنَع، وتضاعفت مرات ومرات أجور أتعابهم، وأبوها كان أحد أمهر الخياطين في البلدة. .

كنت أمر أمام بيت ست الكل بين فترة وأخرى، وأحلم اني سأجد الباب مواربأ كما كانت تتركه، واني سأدخل وأناديها: يا ستي. . يا ست الكل. . واذ أمر بالباب يصدمني صمته الموجع، وحزنه المقيم. .

ومات الجد أيضاً. . وأمر طبيعي أن يموت رجل في الثمانين بشكل أو بآخر. فجأة، أو ببطء. . لكن جدّي، وقد مضى على رحيل ست الكل شهر كامل، مات بطريقة ارادية. . ناداني، وناولني عكازه، ثم طلب مني أن أسندها عند باب الدار. . كانت تلك هي المرة الأولى التي يتخلى فيها عن عصاه. . فمضيت مطيعاً، وحين عدت، وجدته جالساً، لا مثلما تركته، انما مائلاً الى الخلف قليلاً، وكان في عينيه الكليلتين حزن كذاك الذي كان فيهما لحظة أُعلن عن موت ست الكل.

وها أنتم تنتظرون خاتمة للحكاية. . لا بأس. فكل الحكايا تحتاج الى نهاية مناسبة. . . ترددت كثيراً. . في البداية كانت مجرد أحلام يقظة: أن أتسلل الى دار ست الكل المقفلة. . ثم تضخم الحلم وصار هاجساً مؤرقاً. . كانت دار ست الكل تجاور خرابة معدة للبناء، اختلف ورثتها فيما بينهم فتركوها. . تسلقت الجدار من الخرابة، وهبطت. . . كانت الورود قد ماتت في أصصها، وحلت

محلها نباتات وحشية. . الغبار يغطي الجدران والأدراج. . النوافذ معتمة من أوساخ، والأبواب مواربة على الجفاف. . تقدمت بجرأة تدربت عليها في أحلام يقظتي طويلاً. . دفعت باب غرفة الجدة ودخلت. . الصور المعلقة على الحائط بعضها ما يزال. . بساط كالح مطوي كيفما اتفق عند العتبة. . مصباح بتر ولي غطى السخام بلّورته، مركون فوق اليوك. . السرير النحاسي ذو الطراز القديم ما زال في مكانه، وفوقه فراش ست الكل الذي ماتت فوقه، مطوي عند نهاية السرير، معبأ برائحة الأدوية الأخيرة. . وكان ثمة مخدة. . تلك المخدة التي أشارت اليها نوال ذات صباح أحد، مرمية على الأرض، وثمة شق فيها، كان واضحاً انه من فعل سكين. .

١٩٨٧/٧/١٨



* قصص قصيرة للغاية

كم جدارا للرأس

* قبعات

قال الطفل لأبيه: من فضلك يا بابا اشتر لي قلماً.

سأل الأب: لماذا تريد القلم؟

أجاب الطفل: لأكتب به أشعاراً حلوة.

قال الأب: لكنك تمتلك قلماً

رد الطفل: أريد قلماً دون قبعة.. الأقلام التي لها قبعات لا تكتب أشعاراً حلوة.

* هروب

استيقظ الشاعر ولم يجد قصائده في دفتره. كان الدفتر موجوداً، أما القصائد فلم تكن موجودة. . وكان بدهياً أن يستنتج انها هربت.

بحث عنها فوق منضدة عتيقة، وعلى رفوف المكتبة، وفي علبة السكر، وبين أوراق قرنفلة تنام في مزهرية، وتحت لوحة معلقة على الجدار.

لم يجدها. . قرر انها لا بد هربت خارج غرفته الباردة. . خرج ليبحث عنها في الشارع. مشط الأرصفة وواجهات المحلات، وجذور الأشجار، وألقى نظرة داخل حلل الذرة المسلوقة، دونما فائدة. .

وحن عاد خائباً الى غرفته فطن الى أن صدور الصبايا كانت أكبر. . وعيونهن أحلى.

* جواز سفر

قالت الشجرة للنهر: يا صديقي. . أنت تسافر دائماً وأنا مقيمة هنا. . أود لو أسافر مثلك. .

ضحك النهر: ذلك مستحيل!

سألت الشجرة: لماذا مستحيل؟ ألستُ ابنة الطبيعة مثلك. .

هز النهر معطفه من الكتفين وأجاب: حسناً. . أنت تحتاجين الى جواز سفر.

عادت الشجرة تسأل: وكيف أحصل على جواز سفر؟

رد النهر: الأمر بسيط للغاية. . اذا كنت لا تكتبين الشعر فستحصلين على جواز سفر.

سألت الشجرة: وما هو الشعر.؟

اضطرب النهر من صعوبة السؤ ال، ثم أجاب: الشعر !. . . يقال انه

لثغ طفولة في عالم عجوز. . أو هو عشق الحياة في زمن صعب. . الشعر، ربما، أن تتعري أمام الخريف، وتفتحي ذراعيك لربيع عاشق.

حزنت الشجرة قليلاً وقالت: أنا أفعل كل هذا. . أنا أكتب الشعر إذن.

ضحك النهر: ما دمت تكتبين الشعر فما حاجتك الى السفر بعيداً؟

* أشعار

أطبق الرجل دفة الديوان، وسأل الشاب. هل أنت الذي كتبت هذه الاشعار؟

أجاب الشاب: نعم.

عاد يسأل: بخط يدك.

رد الشاب: بخط يدي.

قال الرجل: اذن هي ليست أشعاراً. كان عليك ان تكتبها بدم قلبك.

* سرقة

لم يكن في المدينة سوى لص واحد، وقد سعى لسرقة بيوت أغنياء المدينة، ففشل. .

كانت بيوت الاغنياء محصنة بأسوار عالية، محروسة جيداً بكلاب شرسة. ولم يجد اللص أمامه سوى بيت الشاعر يسرقه.

لم يتسلل اللص من النافذة، بل دخل من الباب، فقد كان الشاعر يترك بابه مفتوحاً لتدخل منه القصائد، وتخرج كلما أرادت.

لم يجد اللص في بيت الشاعر سوى الكتب والأوراق والأقلام، ومزهرية فيها

قرنفلة ورائحة قصائد متوحشة، وما كان يريد أن يعود خائباً. .

حمل دستة من الأوراق ومضى بها الى بيته. وهناك فرد الأوراق وقرأ فيها كل ما كتبه الشاعر.

صباحاً استيقظت المدينة، ولم يكن فيها لصوص.

* وقت

- أيها الشاعر. . كم قصيدة تكتب في السنة؟

* لا تسألني هكذا. .

- كيف إذن؟!

* قل كم سنة تكتب في القصيدة ؟

* نقاء

استيقظت القرنفلة ذات صباح فرأت أفقاً رمادياً، ونهراً رمادياً، وشجرة رمادية، وسنابل رمادية. .

جاءت الشمس، فلونت الأفق بالأحمر، والنهر بالأزرق، والشجرة بالأخضر، والسنابل بالأصفر.

ضمت فراشة ملونة جناحيها، وسألت القرنفلة: لم أنت بيضاء أيتها الصديقة.

ردت القرنفلة: رأيت كل الألوان، وفتحت قلبي لها، فصرت نقيّة.

* أغنية

غرد عصفور فوق شجرة.
سمعته النحلة، فأوقفت طنينها، وسألته: أيها العصفور، لمن تغني؟
أجاب: أغني للحرية..
سألت: وما هي الحرية؟
قال العصفور: الحرية هي أن أغني.

* اغتسال

ركضت طفلة الى النبع لتغسل وجهها في مياهه النقية.
انحنت فرأت صورة طفلة على صفحة المياه الهادئة.
سألت: من أنتِ؟
ردت طفلة النبع السؤال: من أنت؟
قالت الطفلة: أنا ندى..
قالت طفلة النبع: أنا ندى.
قالت ندى: سأغسل وجهي لأغدو نظيفة وجميلة.
كررت ندى النبع: سأغسل وجهي لأغدو نظيفة وجميلة.
ضحكت ندى، ومدت يديها الى الماء، فاختفت طفلة النبع.
غرفت الماء بكفيها، غسلت وجهها. وحين انتهت، نادت: يا ندى..
تعالي.. تعالي.. صار وجهي نظيفاً وجميلاً.
عادت ندى النبع، وكان وجهها نظيفاً وجميلاً هي الأخرى لأنها غسلته قبل قليل. وكانت تبتسم.

* علو

سألت الشمس نهراً: لماذا تجري الى أراضٍ أكثر انخفاضاً باستمرار أيها النهر؟!

تعكّر وجه النهر، واضطربت مياهه لأنه لم يعرف الجواب، فهزّت الأشجار أغصانها على ضفتيه، وأجابت عنه: نحن نشرب من ماء النهر، ونرتفع الى الأعلى أيتها الشمس.

* مبادلة

أضاع طفل عشرة قروش في ماء الجدول.. بحث عنها طويلاً ولم يجدها، فجلس يبكي..

سأله الجدول: لماذا تبكي أيها الصغير؟

قال الطفل: أضعت قروشي في مياهك.

قال الجدول: لا تبك يا صغيري.. مدّ يدك الى مياهي، وخذ شيئاً بدل قروشك الضائعة.

مد الطفل يده، وحين أخرجها وجد بين أصابعه أغنية!

* شيء مــــا

سأل الطفل أمه: لماذا تؤلمني معدتي؟

قالت الأم: من الجوع..

سأل الطفل : وما الجوع؟
أجابت الأم : شيء يملأ المعدة بالألم . .

❋ ٣ أسئلة

١ ـ

قبلتك أمس تحت المطر، فأيّ صحارى بيننا كانت تحتاج الى مثل هذا الحل البسيط .

٢ ـ

ها أنت تغتسلين بالغيوم ، وتنبتين غابات من الضياء، سوى حبات المطر كانت تحتج :

كيف يغتسل النقاء بالبراءة؟

٣ ـ

لم أذق من قبل طعم شفتين بالمطر، ولذا احترت : أيهما كان أطيب، هطولك أم القبلة؟

انه الرحيل أيتها الجبال

أتعبته الشمس والأرصفة والعناوين المخبأة في جيب قميصه، ودون قرار مسبق دخل محلاً يبيع قبعات لها ألوان كثيرة.. انتقى واحدة رمادية، وساوم البائع طويلاً كسباً للجو المكيف داخل المحل..

حين خرج، رأى المارة رجلاً يمشي دون رأس.

* * *

أهدته المرأة التي زارته في الصباح قرنفلة وطائراً مغرداً وصورة هرّة.

وضع القرنفلة في المزهرية، والطائر في القفص، والصورة على المرآة.

في المساء اكتشف أن المزهرية ذابلة، والطائر أكلته الهرة، والقفص في المرآة فبكى..

* * *

رأى في حلمه امرأة عارية، وفي الصباح داهموا بيته، واقتادوه الى المحكمة.
قال القاضي: أنت متهم برؤية امرأة عارية في حلمك.
رد: نعم يا سيدي. رأيت.
قال القاضي: أنت مدان، وقد حكمتك المحكمة بالاستيقاظ خمس سنوات.
حين انتهت مدة الحكم، اشترى ثوباً عتيقاً لامرأة، وغطّى أحلامه.

* * *

قالت له: أنت مغرور.
صاح: أنت النساء جميعاً، فكيف لا أشعر بالغرور؟

* * *

دخل الى الربيع، وقطف قرنفلة بيضاء، ثم ركض على أرصفة زمن منسي، وطوى دروباً صعبة، وجرّح قدميه بحجارة سكّينية الحدود. وعندما وصل، كانت القرنفلة في يده يانعة، وأما المرأة فكانت يابسة.

* * *

كتب الطفل في دفتره: أمي لا تشبه الزمن.. أمي ضاحكة وهو عابس.

* * *

دخلا غابة، وتوغلا فيها عميقاً، وحين تعبا، تبادلا القبل تحت شجرة تحفظ السر.
حين أغضبته بعد سنين جاء يشكوها.. لم يجد في الغابة سوى شجرة خضراء واحدة.

* * *

جاء ملك الموت بعينين قاطعتين، يحمل منجلاً مسنوناً.
سأل: أهي النهاية.
أجاب الملك: هي النهاية.. أمامك لحظات لتتذكر فيها ما تريد.
فأغمض عينيه، ولم يجد في حياته المديدة ما يتذكره سوى اسم حبيبته.
حين فتح عينيه كان ملك الموت يعدو بعيداً في صحراء موحشة.

* * *

وقف أمام البحر.. كان ثمة بحار شيخ على مركبه، يتأمل الرياح، ويشم رائحة الزمن.. اقترب منه. سأله: لم لا تبحر يا عم؟
أجاب الشيخ: ليس لمركبي مجدافان.. سرقهما اللصوص.
فانتزع الفتى ذراعيه، وقال: إليك.. ها مجدافان لمركبك، فابحر.
قال الشيخ: كيف ستحبك امرأة وأنت دون ذراعين؟
قال الفتى: ليس حباً ذاك الذي لا ينظر الى أعماق القلب.

* * *

أعطته كومة من الصور، وقالت له: اختر. فاختار صوراً لبحر، وغابة، وأطفال، وراع، وفراشات ملونة، وباب..
قرأ تحت الصورة الأخيرة : «ها أنذا واقف على الباب أقرعه، فإن سمع أحد صوتي، وفتح الباب، دخلت اليه لأتعشى على قرب منه، وهو على قرب مني»
هتفت: أي حزن يسكنك. وأي تفاؤل لا ينطفىء.

* * *

وجد قيثارته دون أوتار، فانتزع أوتار حنجرته وشدها الى الخشب. . وحين كانت تسأله: لماذا أنت صامت؟ كان يمد أصابعه الى القيثارة ويعزف نشيده الوطني.

* * *

حين مر به الجائعون، لم يجد ما يعطيهم، فحمل سيفه وتبعهم.

الخروج من بوابة الجحيم



كانت الفكرة في ذهن علي خلقي . .

الشيخوخة وارتعاش اليدين لم يسعفاه على كتابتها ، وقد أورثها لي ، وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أرث فيها شيئاً . . وفي وصيته الشفهية أن أصوغ القصة .

وقد فعلت كما فهمتها . . تحية لذكراه .

«و»

هبط سقف الغرفة رويداً رويداً ، وصار ثقلاً ضاغطاً على الصد

تحركت الجدران ، وضاقت المسافة . . تحولت النافذة الى عين كبيرة مف

«اطفئوها . . اطفئوها . . » صاح .

فأسدلت ستائر سوداء كالحة فوق العين ، ولم يبقَ في الغرفة س

شحيح لمصباح ، روعي أن يكون قريباً من الأرض ، وعلى ضوء المص

الطبيب شبحاً يحمل محفظته ويأسه، ما لبث أن أعلنه بهزة من رأسه أمام الجميع خارج الغرفة.

- والعمل؟

سألت الزوجة، وكان صعباً على الطبيب أن يجيب مباشرة، إذ لم يكن يملك حلّاً واحداً.. قال: «سينام بعد قليل!» فردّت الزوجة: «ليصحو مجنوناً من جديد..» وكان الرجل هادئاً فوق سريره.. صار الصراخ ضجيج سياط لاسعة في داخله.. كرر، وهو يحاول حماية رأسه من الضربات المتتالية: أنا لم أفعل شيئاً.. أنا لم أكن منهم.. أنا مظلوم. مظلوم. مظلوم. هذه المرة مظلوم. أيها السقف. أيتها العين. يا جدران الرحمة. يا سلطة الجدران. يا ملاك السير وفيم. يا سير وفيم الظلمة..

وأوغل في الظلمة غريقاً في بحر لا قاع له..

* * *

حكاية المواطن عبد الصبور بسيطة للغاية.. لا أحد يتحمل ذنباً في كل ما جرى له.. هو المسؤول الأول والأخير.. كان عليه أن ينسى. يقاوم. يبدع ذاكرة جديدة لذاكرته. يخلق من نفسه مواطناً آخر اسمه عبد الصبور.

ولكن ليس عبد الصبور ذاته.. نجح في تبديل منزله القديم.. ترك ذاك واستأجر واحداً بعيداً بما يكفي، لكي يظن الظانون حسن النية في الرجل. رحل عن حارته القديمة التي تعرفه، كما تعرف القطّة جروها. كان سعيداً بهذا. هنا أكثر اطمئناناً. لن يخرج من البيت، فيقال: خرج عبد الصبور. ويتأخر، فيقال: تأخر. ويسهر، فيقال:سهر. ويستقبل فلاناً، فيقال: استقبل.. صحيح انه خرج مكرهاً بحكم اخلاء من محكمة معترف بأحكامها. لكنه أقنع نفسه أن في بحر القانون الجائر ثمة نقطة عادلة دائماً. وكان رحيله هي!

والحكاية بسيطة.

والحكـايـة بدأت حين عاد عبد الصبور الى بيته. عبر الحي دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. . حرص حين العبور ألّا يرفع رأسه خيلاء، أو يحنيه خنوعاً. أخرج سلسلة المفاتيح قبل أن يصل بخطوات. انتقى المفتاح المفترض قبل أن يلج عتمة الـدهليـز. أولـج المفتاح، ودخل. وحين ردّ الباب خلفه، ألقى تحية مقتضبة على الـوجـه الـذي طالعـه: أمينـة. . خلع معطفه، وعلقه في مشجبه كما في كل يوم. غسل يديه. اتجه الى المائدة. جلس. أمسك ملعقة وحمل بها الطعام الى فمه. . مشهـدٌ يَتكـرر اليـوم، ويوم أمس، والـذي قبله وربـما سيتكـرر أياماً طويلة قادمة، لانهاية لاوراقها. .

ـ أما من رسائل؟

هز رأسـه نفيـاً، لأن اللقمة كانت في مجرى الكلام، فكرّرت أمينة ما قالته بالأمس: كان عليك أن تمر على البيت القديم، وتسأل. . لعلّه أرسل شيئاً الى هناك!

قال عبد الصبور: أرسلنا له عنواننا الجديد.

ردت أمينة: ربما لم تصله رسالتنا.

أجاب: هناك لا تضيع الرسائل. لا أحد يفتحها. لا أحد يفتشها. الغربة تُنسي الأولاد أهلهم.

قالت: هي لا تضيع هناك اذا خرجت من هنا!

رفع كوب الماء لينهي غصة، أو لينهي الحديث. . قال بعد أن شرب: سأمر غداً. وتذكر أنه قال «سأمر غداً» يوم أمس.

«مـر جابي الكهـرباء اليوم» قالت أمينة، وهي تدفع قطعة لحم صغيرة الى صحن عبـد الصبـور. ولم تنتظـر الجواب، فتابعت: الوصل على المكتبة. لم يكن معي. مرّ أنت وادفع.

كان يريد أن يقول لها «ما كان معي. اليوم قبضت» لكن أمينة تعرف هذا، ولا حاجة لأن يكرر ما هو معروف.

«ومرّ رجلان . . شابان . . » قالت المرأة . .

أوقف ملعقته في منتصف الطريق الى فمه، وانتظر، وكان الانتظار دون فائدة . كأنها نسيت أمينة بقية الجملة .

ـ شابان؟!

ـ شابان سألا عنك . . .

ـ عني أنا؟!

ـ عنك . . . قالا أين عبد الصبور . . أحدهما سأل، والآخر أقحم عينيه داخل البيت .

زمّ عينيه من حرارة اللقمة . واستعرض وجوه شباب كثيرين . . . طرد من ذهنه صورة قديمة لشابين . طرد الصورة فعاودته . . طردها ثانية . . واستعرض وجوه الأقرباء، المعارف، زملاء العمل، الجيران، أبناء أصحاب الديون . وأحسّ بالشبع حين لم يستطع تجميع وجهين يعرفهما معاً . . غادر المائدة . دخل غرفته، خلع ثيابه وعلقها على مشجب معلق هو الآخر في الحائط، استلقى، أغمض عينيه، كان جفناه أرقّ من أن يحجبا ضوء النافذة . . سحب البطانية الى ما فوق رأسه . جاءته العتمة بصور جديدة، ثم عادت الصورة القديمة لشابين قرعا باب البيت ذات يوم . .

* * *

فتحت أمه الباب . ألقيا تحية مهذّبة للغاية، وقالا بود شديد . أحدهما قال، والآخر تطلع من خلف كتفها الى الداخل :

ـ أنت أم عبده بالتأكيد .

ـ نعم يا عيني . . أنا أم عبده .

ـ عبد الصبور في البيت؟

وأدخلتهما . . فكرت : «أصدقاء عبده من الكثرة بحيث يعجز المرء عن

تذكرهم جميعاً. إن لم أكن مخطئة فهذان أراهما لأول مرة، وصاحت: يا عبد. تعال جاءك ضيوف.

جاء راسماً ابتسامة على وجهه. ثم انطفأت الابتسامة غريزياً شيئاً فشيئاً عند عتبة الغرفة حالما طالعه وجهان لا يعرفهما..

«أهلاً وسهلاً». ومدّ يده، فوقفا وصافحاه ببرود. لم يجلسا. قالا. أحدهما قال، والآخر كان يراقب النافذة: «عبد الصبور. ستذهب معنا!»

- الى أين؟

- الى الفرع.

- لماذا ؟

- هكذا.. مجرد استفسار صغير وتعود. شرِّف معنا..

- القهوة. جاءت القهوة. اجلسا لتشربا القهوة..

فردَّ ذاك الذي كان يراقب النافذة، وقد تركها واقترب من عبد الصبور حتى لاصقه كتفاً الى كتف: سنشربها هناك.. بمعيتك!

* * *

تقلب على الفراش. اخترق ضوء النهار خشب النافذة، وزجاجها، وستائرها الداكنة. اخترق جدار الجمجمة. لسع السوط جلده. صرخ، ثانية، وثالثة، ورابعة، وألف.. آلاف السياط هبطت فوق الجسد. صرخ.. تمزق الجلد. انفجر الدم من كل مكان ينابيع حمراء.. من الفم والعين والظهر. صرخ يستنجد بملائكة سمع عنهم، وبأنبياء ينامون في الكتب، وما من أحد كان ينجده.. كرر للمرة المتوافقة مع عدد السياط: أنا مظلوم.. مظلوم.. لم أشتم الزعيم حسني الزعيم.. لم أشتمه..

سقط على الأرض.. دارت الجدران.. اختفت النوافذ.. اختفى زبانية الجحيم.. هرب العذاب الى بئر عميقة.. الماء يغمره.. دخلت الأشرعة

الحمـراء في بحـر الهـدوء. . أحس مجدداً بالمـاء يغمـره. . صحا مرغماً. . صحت جراحـه. . وكـان ثمـة منـاطق استطـاع حمايتها ساعة الجلد. . الآن صارت يداه مجدافـين مرميـين الى جانب قارب ميت. . لسعـه (في تلك المنـاطق) بسطـار ممسمر. . صرخ: آخ! فصرخ البسطار: «عم تمثل علينا يا عرص. . ». أنهضوه. . . .

* * *

أنهضـوه. . تقلب في الفـراش. . صرخ. . ناحت الـزوجـة، وشكت: المخدر ما عاد يفيده. .

سألت جارة استجلبها الصراخ: ماذا قال الطبيب؟

ردت النائحة: قال يجب نقله الى المصح العقلي اذا لم يهدأ. .

من يصدق. . عبد الصبور العاقل يجن. .

قالت الجارة: حالة تجنن العقلاء. .

* * *

حملوه الى قاعـة يكسـوهـا السجـاد. . أحس الصـوف جمراً يُلهب جراح قديمه. . كاد يسقط. . تطلع الى المقاعد الوثيرة في القاعة مثلما يتطلع كلب جائع الى ذبيحة معلقة في دكان قصاب. . دفعوه حتى صار على بعد متر من الرجل. . وكـان الـرجـل ضخم الجثـة. . ضخـامـة المنضدة خففت من غوليته، ربما. كان يستند نصف مائل الى مسند مقعده، وفي فمه لفافة. . .

«ها. . ماذا قلت؟» قال الرجل الغول.

عبد الصبور لم يقل شيئاً، ولهذا رد بثقة: لم أقل شيئاً!

ـ أعجبتك الحفلة؟!

لم يرد. لم تسعفـه جمجمتـه المهـروسـة بالرد. . صرخ أحد الرجال الواقفين خلفـه: «يـا حيـوان. . عنـدما يسألك المحقق ردْ». . وفكر عبد الصبور أن يقول

«أعجبتني» وعندها سيكررونها لأنها أعجبته. أو يقول: «لم تعجبني» فيأخذونه الى واحدة أشد.. أنقذه الرجل الضخم من حيرته.. سأله:

- أنت واحد منهم؟

رد عبد الصبور بحزم: نعم، أنا واحد منهم.

- ماذا تريدون؟

- نحن ضد الديكتاتورية والحكم العسكري والعمالة للاستعمار. نريد الديمقراطية.

هز المحقق وجنتيه الحمراوين: أنت شتمت الزعيم في المقهى.

قال عبد الصبور: أنا لم أشتمه.. أنا قلت ان شعبنا لا يريد الدكتاتورية، وان الديكتاتوريات تلجم قواه، وتعطل طاقاته.

ضرب المحقق بيده على ورقة أمامه: التقرير هنا يقول أنك حرّفت اسم الزعيم الى اللئيم ابن اللئيم.. هذه التهمة عقوبتها السجن ثلاث سنوات.

وأشار آمراً باصبعين سمينتين، فخرج الرجال من الغرفة. وبالاصبعين ذاتهما باشارة تعاكس الأولى، أشار على عبد الصبور. تقدم عبد الصبور نصف خطوة.. أمر الرجل بصوت خافت: «اقترب.. اقترب».. تقدم عبد الصبور نصف خطوة أخرى. همس الرجل: «اسمع يا عبد الصبور. ستعطيني أسماء عشرة أشخاص من رفاقك، وتوقع لي هنا على ورقة صغيرة للغاية، سننشرها كاعلان عن انسحابك في الصحيفة.. لا تخف.. ننشر الاعلان على حسابنا.. وسأطلق سراحك فوراً.. بعد نصف ساعة ستكون في بيت أمك.. اختر بين بيت أمك وبيت خالتك.. أنت حر...» وضحك الغول.

لم يضحك عبد الصبور.. شد جراحه، ولملم جداول الدم عن جلده..

قال بحزم: لا أعرف أحداً، ولن أوقع على أوراق..

وانفتح باب الجحيم من جديد..

* * *

انفتح باب الجحيم من جديد . .

صرخ . . تقلب فوق فراش من شوك . . أراد أن يرفع يده ليرد السياط عن مناطق حساسة في جسده . . كانت يداه مقيدتين . . صرخ . . دخلت الزوجة . . «لماذا أنا مقيد . . فكّوني . . » فأنزلت الزوجة دموعاً، لم تستطع غسل عقد الحبال . .

* * *

رفـع عبـد الصبـور الغطـاء عن رأسـه . نهض . لم ينم . . . كان ما يزال يستعـرض وجيهن لشـابـين من بين وجوه كثيرة . جاءا وسألا عنه . ارتدى ثيابه . . اصطدم بزوجته . سألها : ما شكلهما؟

ـ من هما؟

ـ الشابان . .

ـ أي شابين؟

ـ اللذان سألا عني .

ـ شابان . . هكذا . . واحد له شارب والآخر دون شارب . . .

اتجه الى المغسلة . نظر الى وجهه عبر مرآة صفراء . سأل المرآة : ماذا كانا يرتديان؟

ردت الزوجة : ثياباً!

ارتجف من غيظ مكتوم : أعرف انهما كانا يرتديان ثياباً ، ولم يجيئا عاريين . . أقصد أية ثياب؟

ردت الصابرة أمينة : مدنية . .

ارتدى معطفه . . خرج . التقى أبا ياسين السمّان خلف ميزانه . أراد أن يسأله عن شابين سألا عنه . سبقه أبو ياسين : «سأل عنك شابان» . . ماذا يريدان مني؟ ما شكلهما؟ ماذا يرتديان؟ من هما؟ لا شيء جديد . المعلومات الجدباء ذاتها تتكرر .

. . وقال رحمو الحلاق، وهو يوقف طقطقة مقصه، «سأل عنك شابان» . . ماذا يريــدان مني؟ ما شكــلهــما؟ ملذا؟ . . ماذا؟ . . . ؟ ما . . ما . . . لا شيء جديد. المعلومات الجدباء مرة أخرى.

ذهب الى حيه القديم. دخل المقهى . . .

/أنا لم أشتم الزعيم في المقهى . . . أنا قلت رأيي في الحكم/ . .

سأل معـارفـه عن شابـين سألا عنه . . هزت الرؤ وس رؤ وسها . . هز رأسه «ربما من المعمل . . تعطلت آلة، وأرادوا اصلاحها فأرسلوا شابين . . غداً أسأل في المعمــل . . » شرب الشــاي، واستعـرض وجهي شابين من المعمل أرسلـوهما لمثل هذه المهمـة. أحـدهما لا بد سائق . . هربت الصـور . . نهض . عاد الى البيت . طرد الصــور من ذهنـــه . أغمض عينيـه لينـام . عادت الصـور . فتـح عينيـه.قرأ العتمـة . . «شـابـان من المعمل . . غداً أسأل . . كان يجب أن أذهب الى المعمل بدل الحـارة القـديمـة، لَمْ لَمْ أفطن الى هذا؟» . . أغمض عينيه من جديد. تقلب على فراش شوك . .

* * *

خرج من السجن متأبطـاً بقجـة سوداء . . دخـل الحـارة . . لم يقل له أحد «الحمـد لله على السـلامـة» . . صافحـوه وكرروا : «البقية في حياتك» . . كانت العتمـة قد بدأت تهبـط على المـدينـة . . لو أنهم أطلقوا سراحـه صبـاحاً لزار قبر الأم . . المقبرة بعيدة . . وقال سعد : «صاحبك اللئيم سيرحل قريباً» وأشار الى الاعلى . .

ونام عبد الصبور وحيداً تحت سقف غاب عنه طويلاً .

* * *

وقال الطبيب : «يجب نقله الى المصح العقلي . . حالته خطرة» فصرخ : «يا

ملائكـة الـرحمـة . يا سلطـة الجدران . يا أكتاف النجوم . يا نجوم السماء . يا ملاك السير وفيم . يا سير وفيم الرحمة . . » حلوا وثاق اليدين . ربطوه من قدميه بحبل ، والحبـل ربـط في حديـد النـافـذة . . مزق ثوبه وصرخ . . استنجد بملائكة سمع عنهم . بأنبياء ينامون في الكتب . بشياطين يسكنون الرأس .

* * *

وجاء شابان . . قرعا الباب . فتحت الزوجة بيد ، وأحكمت امساك طفلها باليد الأخرى .

ـ هذا بيت عبد الصبور؟

ـ هذا بيته .

ـ أنت زوجته؟

ـ أنا زوجته .

ـ وهذا ابنه؟

ـ هذا ابنه . . .

ـ وأين عبد الصبور؟

ـ لا أعرف . .

وأقحم أحد الشابين قدمه بين الباب والعتبة .

ـ أين يمكن أن يكون؟

ـ لا أعرف . . لم يقل لي أين سيسهر . .

ـ عنده اجتماع؟ !

ـ لا . . عبد الصبور يلعب بالورق مع أصحابه .

ـ يلعب بالورق ، أم يطبع المنشورات . . هاه؟

ودفع الرجل صاحب القدم الباب بكتفه : ابتعدي ، سنفتش البيت . .

قلبـوا المكتبـة ، الفـراش ، خزانـة الثياب ، علب المؤونة ، صناديق العفش

المنسق، صناديق الأحذية العتيقة. . تركوا كل شيء مقلوباً، وجلسوا ينتظرون. وكان الطفل يبكي. والمرأة ترتجف من خوف. أتعبهما النعاس. . وقف أحدهما وصرخ بالمرأة: «يا كلبة. . قولي من الأوّل أن عبد الصبور هربان».

وخرجا. . لم تنم المرأة أمينة، التي صار اسمها عبدة الصبور. . نام الطفل. . خرجت مع الفجر. مسحت زوايا الشوارع بعينيها خوفاً من عيون، مشت غير مسرعة كي لا تلفت اليها الانظار. سلكت درباً أطول من المعتاد. . قالت لعبد الصبور:

ـ جاء شابان وسألا عنك.

ـ ماذا يريدان؟

ـ لم يقولا. . دخلا، وقلبا البيت. السقف صار تحت والأرض فوق. . يا عبد الصبور، قريباً سيعرفون أنك تنام في بيت خالك ويأخذونك. . الى أين تذهب، ولا مكان. .

جاؤوا وأخذوه. . سياط. دم. ماء. كهرباء. دولاب. سياط. سياط. يا سلطة الجدران. يا جدران الرحمة. يا ملاك السير وفيم. يا سير وفيم العتمة. .

* * *

وقال الطبيب: لا فائدة. . يجب نقله الى المصح العقلي. .

* * *

استيقظ في ساعة أبكر من ساعة استيقاظه المعتادة. . غفا قليلاً بعد تعب البحث عن صور مجهولة. خرج الى المعمل في ساعة أبكر من ساعة ذهابه. . سأل الحارس عن شابين سألا عنه. سأل رئيس الواردية. . رئيس القسم. . سأل عن آلة تعطلت يوم أمس. . سأل. . وكان يسأل باستمرار، ثم صاروا بعد أيام يسألونه هم: عرفت الشابين اللذين سألا عنك؟!

وقال الطبيب: أعصابه تعبانة قليلاً . . هاجس شيطاني يركبه . .

وقالت الصابرة عبدة الصبور: الحق علي . . كان يجب أن أسألهما عمّا يريدان من عبد الصبور.

وهز الاقرباء رأسهم. لم نرسل أحداً ليسأل عنك!

وصار الفراش سياطاً، وستار النافذة كرباجاً متحركاً، الجدران دولاباً يدور، والسقف ضوءاً جحيمياً، وصارت الأرض كرة ماء تسرق النوم . .

* * *

النوم . . . النوم . . السياط، الدولاب ، الجدران، يا سلطة الجدران، يا جدران الرحمة، يا ملاك السير وفيم . . يا سير وفيم الظلمة، أنا لم أشتم الشيشكلي . . أنا قلت أن حكمه غير شرعي .

وقال الطبيب: الحالة تزداد سوءاً . . يجب نقله الى المصح . . .

جاءت السيارة . . ترجل منها رجال أقوياء . . دخلوا الغرفة، رفعوا الستائر، فصرخ من لسع الضوء فوق عينين تستجديان النوم . ألبسوه قميصاً أبيض بكمين طويلين. فكوا الحبال عن يديه. فكوا الحبل عن النافذة. ربطوا كمي القميص الى الخلف. تطلّع اليهما بعينين مترجيتين: أنا لم أحرف اسم الزعيم. ولا شتمت العقيد. أنا قلت رأيي . . انتم قولوا رأيكم أيضاً. لنتبادل الضحك أيها السادة المحترمون. لنتبادل الأنخاب . . لنتبادل القبل . . أيها السادة . . نحن متحضرون . . لنتبادل الحرية . .

فبكت الزوجة . . ناحت: ماذا أكتب لابننا في غربته؟ أبوك جن؟ ربما أبوك مجنون أسهل . . لا . . أبوك أخذوه الى الجنون . . الأفضل أن أكتب له أبوك مريض في عقله . . . أبوك جاء شابان وسألا عنه . . .

وقال قائد المجموعة البيضاء: أمسكوه جيداً سنفتح الباب .

قُرع الباب . . تقدم قائد المجموعة وفتحه، لأن الباب قرع أولاً ، ولأن

خطوته القادمة الخروج بالرجل الى السيارة . . .

أطل شابان من خلف الباب .

صاحت الصابرة أمينة : هما . . . هما . . .

خرج الــرجــال البيض بالــرجـل المكتـوف . . عوت السيـارة . . وي . . وي . . . وي.سأل أحد الشابين : هل السيد عبد الصبور موجود؟

صرخت الزوجة : من أنتما؟ ماذا تريدان من عبد الصبور؟

رد الأقصر بين الشابين : كنا نريد أن نسأله عن عنوان صاحب البيت . . له عليّ مائة ليرة وجئت لأردها له . .

* * *

وقــال عبــد الصبـور: يا سير وفيم الظلمـة . . ثم بدأ يضحـك . وكـانت الجدران تضحك . والصابرة عبدة الصبور تضحك . وعبد الصبور ما زال يسأل : من سأل عني؟

١٩٨٥/١/٣٠



الفهرس

صدر عن الاهالي

١ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها	د. محمد العودات و د. جورج لحام
٢ ـ المعتزلة والفكر الحر	د. عادل العوا
٣ ـ ساعة الشؤم (رواية)	غابرييل غارسيا ماركيز ترجمة صالح علماني
٤ ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان	د. عبدالله حنا
٥ ـ والليل الذي يسكنني (شعر)	ممدوح عدوان
٦ ـ الفضاء هذا العالم الجديد	مجموعة من الباحثين ترجمة عيسى طنوس
٧ ـ السينما والقضية الفلسطينية	حسين العودات
٨ ـ أناباز (قصيدة طويلة)	سان جون بيرس ترجمة عبد الكريم كاصد
٩ ـ الفرسان الثلاثة (للاطفال)	سليمان العيسى وصلاح مقداد
١٠ ـ الداء السكري	د. مية الرحبي
١١ ـ المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة	علي القيم
١٢ ـ أزهار الكرز (أشعار يابانية)	ترجمة عدنان بغجاتي
١٣ ـ وضاح وليلى (للاطفال)	سليمان العيسى
١٤ ـ القيامة والزبال (مسرحيتان)	ممدوح عدوان
١٥ ـ الذاكرة والغضب (رواية)	فائز الزبيدي
١٦ ـ حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)	وليد معماري
١٧ ـ حكى لي الأخرس (سحريات صغيرة)	خطيب بدلة
١٨ ـ قداس من اجل فلاح اسباني (رواية)	رامون خ. سندر ترجمة عاصم الباشا

تحت الطبع

ـ البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف	د. أحمد جاسم الحميدي
ـ مسرح الريادة	عبد الفتاح قلعه جي
ـ سلسلة صغار الأهالي	(٤ قصص)
ـ زوبك (رواية)	عزيز نسين ترجمة عبد القادر عبد اللي
ـ التلوث وحماية البيئة	د. محمد العودات

حكاية

الرجل الذي رفسه البغل

إن عالم وليد معماري هو عالم المفارقات والاشكاليات الصعبة حين يضطر الانسان الى القبول بلعبة التحكيم وهو يعرف ان خصمه هو القاضي نفسه، ويضطر في نهاية الأمر الى احراق أوراقه والقبول بالخسارة.. ولكن الانسان مجبر على الاختيار، فهو لايملك ان يكون معطلاً أمام واقع يهتز من تحت قدميه ولو كان أمام اختيارين أحلاهما مرّ. والانسان عنده يقف أمام حدّين، حد النبوءة ـ الغيب، وحد الاختيار ـ الفعل، وهو لايجد أمامه اخيراً سوى الخروج من الظل وممارسة فعل القتل. كما قال الشاعر شوقي بزيع.

ولعل هذا الكتاب صورة عن عالم وليد معماري

الناشر

السعر ٥٠ ل.س